مجلة معهد الإمام الشاطبي

حال المؤمن عند الضراء

إعداد

د. فايز بن حبيب بن دخيل الترجمي

الأستاذ المشارك بقسم التفسير وعلوم القرآن -كلية القرآن الكريم
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

- من مواليد عام ١٣٨٣هـ بالمدينة المنورة.
- نال شهادة الماجستير من قسم التفسير وعلوم القرآن، بكلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية، بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٤١٥هـ، بأطروحته: "مرويات ابن مردويه في التفسير: جمعاً ودراسة من أول سورة يس إلى نهاية سورة الحديد". كما نال شهادة الدكتوراه منه عام ١٤٢٠هـ، بأطروحته: " اختيارات الإمام الشوكاني في التفسير من خلال كتابه فتح القدير: عرضاً ودراسة من أول سورة الكهف إلى نهاية سورة الناس".
- من أعماله المنشورة: "الاستقامة في القرآن الكريم"، "ما نطق به الكتاب فيما ينال وجوه الظالمين من العذاب"، "إطلاقات الوجه في القرآن الكريم "، "حال المؤمن عند السراء كما يصورها القرآن الكريم".
- البريد الشبكي: fh1483@gmail.com

الملخص

يهدف البحث إلى بيان حال المؤمن التي ينبغي أن يكون عليها عند نزول الضراء كما يبينه القرآن الكريم؛ سواء كان ذلك في جانب التوحيد والاعتقاد؛ من خلال الإيمان بأن الضر بقضاء الله وقدره وأن لا كاشف له إلا الله أو في جانب دفع الضر ورفعه أو تخفيفه ؛ من خلال الصبر والاحتساب، وتسليم الأمر لله ، من غير تجزع ولا تسخط ولا تبرم، مؤمنا أنه ما نزلت مصيبة إلا بذنب متذكرا ما يترتب على صبره من عظيم الأجر ورفعة الدرجات، مما له عظيم الأثر في طمأنينة النفس، وراحة البال، وانشراح الصدر، والرضا بالقضاء والقدر بخلاف الكافر الذي تزهق روحه لأدنى المنغصات، لفقده تلك الجوانب الإيمانية التي رزقها المؤمن.

كما يهدف البحث إلى إلقاء الضوء على شيء مما يصاحب الضر من لطف الله تعالى والذي قد يقصر العقل البشري عن إدراكه لمجيء الخير في صورة الشر والرحمة في لباس العذاب ووراء ذلك من ألطاف الله تعالى ما لا حد له ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وخُتم البحث بذكر نماذج من أنبياء الله وعباده الأخيار الذين نالتهم تلك الأقدار المؤلمة وكيف قابلوها بالرضا والصبر والاحتساب ونالوا عليها عظيم الثواب؛ لنتأسى بهم ونسلك مسلكهم ونعتبر بقصصهم ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦].

الكلمات المفتاحية: الضراء، المؤمن، القضاء والقدر، الرضا والصبر.

المقدمة

إنَّ الحمدَ لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبدُه و رسولُه. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾[النساء: ١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا لَّعَلَّ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]. أما بعد:

فإن الأصل في طبع الإنسان الخوف والقلق؛ سواء كان حال السراء أو حال الضراء؛ حال السراء خوفًا من زوالها، وحال الضراء جزعًا من مشاقها وآلامها وخوفًا من حيلولتها بينه وبين لذاته وآماله، ولم يستثن الله عزَّ وجلَّ من ذلك إلا من هذَّب طبعه بعبادة الله وتقواه وخشيته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا. إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج: ١٩– ٢٢] .

كما أنّ الإنسان قاصر النظر في معرفة العواقب فيكره ما ظاهره الضر ولو كان في طياته الخير العظيم، قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فربما كان الخير للعبد فيما ظاهره الضر؛ بدفع ما هو أعظم منه، أو بتمحيص ذنوبه وخطاياه، أو بتهذيب طبعه وعادته، أو بردِّه إلى الله وتعلق قلبه به؛ فإن تعلُّقَ القلوب بالله تعالى حالَ الضراء أعظمُ بكثير منه حالَ السراء؛ ولعل هذا من أسرار تقديم الابتلاء بالشر على الابتلاء بالخير في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فإن الابتلاء بالشرِّ

يكشف مدى احتمال العبد، ومدى صبره على الضر، وثقته بربه، طمعًا في رحمته، وربما أثار فيه كبرياء المقاومة لاستقبال الشدة والصمود في وجهها.

أما الابتلاء بالخير فكثيرًا ما يصاحبه الطغيان، قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ . أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾[العلق:٦– ٧]؛ وذلك لركون النفس إلى الدنيا وملاذِّها، والسعي الحثيث لتحصيل المزيد منها ولو على حساب غيره.

والضَرَّاءُ: اسم من الضَّرّ أو الضُّرّ –لغتان– وهو: ضِدُّ النفعِ، وما يصيب الإنسان من سوءِ حالٍ أو فقرٍ أَو شدّةٍ في بدنه. وفرق بعضهم فقال: كلُّ ما كان من سوءِ حالٍ وفقرٍ وشدَّةٍ في البدنِ فهو الضُّرُّ، وما كان ضداً للنفع فهو الضَرُّ[1]. وفي الحديث: «ابْتُلِينَا بالضَّرَّاءِ فَصَبَرْنا، وابتلينا بالسَّرَّاء فلم نَصْبِرْ»[2]، قال ابن الأَثير: الضَّرَّاءُ الحالة التي تَضُرُّ، وهي نقيض السَّرَّاء، يريد أَنا اخْتُبِرْنا بالفقر والشدة والعذاب فصبرنا عليه، فلما جاءتنا السَّرَّاءُ وهي الدنيا والسَّعَة والراحة بَطِرْنا ولم نصبر[3].

ومن تأمَّل ما جاء في كتاب الله تعالى وما صحَّ من أحوال النبي ﷺ ، وأفعاله وأقواله وتقريراته، تجاه ما قدّره الله تعالى من ضرٍّ ينال العبد في بدنه وأهله وماله، يجدْ في ذلك خيرَ معين على تحمل تلك المكدِّرات التي قضاها سبحانه على عباده، وجعل هذه الدنيا مكانَها وزمانها، بل يجد فيها ما يحوِّل محنتَها إلى منحة؛ فبلاءُ الله عافيةٌ وإن كان في صورة الضر، ومنعُه عطاءٌ وإن كان في صورة الحرمان، ونعمةٌ وإن كان في صورة المحنة، ولكن لجهل العبد وظلمه لا يَعُدُّ النعمة إلا ما التذ به في العاجل، وكان ملائماً لطبعه، ولو رُزق من المعرفة حظًّا وافرًا لعدَّ المنعَ نعمةً، والبلاءَ رحمةً، وَلَرَضِيَ عن الله فيما قضى وقدَّرَ، بل التذَّ بذلك؛ فإنه ما منعه إلا ليعطيه، ولا ابتلاه إلا ليعافيه،

(١) انظر مادة (ض ر ر)، في لسان العرب (٤ / ٤٨٢ –٤٨٨)، ومختار الصحاح، ص (٢٨٣).

(٢) اخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٣٠)، (٤/ ٥٥٣– ٥٥٤)، برقم (٢٤٦٤) وحسَّنَه، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ٢٠٠) برقم (٢٠٠٤).

(٣) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٨٢).

ولا أمرضه إلا ليشفيه، ولا أماته إلا ليحييه[1].

وبذلك يتعامل العبد ويتعايش مع الضراء بما يعود عليه بخيرَيْ الدنيا والآخرة، ويجلب له المصالحَ، ويدرأُ عنه المفاسدَ، إذ لا يردُّ تسخطُه من أقدار الله شيئًا، وإنما يُفَوِّتُ على نفسه المثوبَةَ، فالكل بقدر الله، والعبد لله، فلا تَجَزُّع ولا تَسَخُّطَ ولا تَشَكّيَ ولا تَذَمُّرَ، وإنما هو استسلام وتعبد لله بالصبر والاحتساب؛ طلبًا لما عنده من عظيم الأجر والثواب، وتَقَرُّبًا إليه بالصبر على الضراء، كما يُتقرب إليه بالشكر على النعماء فـ« **عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، لَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»، كما صح عن النبي ﷺ[2].

فالعقل يوافق الشرعَ في وجوب التعامل مع الضُّرِ بما يُزيلُه أو يخففُه، لا بما يزيدُه أو يضاعفُه. وبذا يوقظ العبد في قلبه العبادات القلبيّة التي مردُّها إلى التعبد لله تعالى حال الضراء، كالتعبد له حال السراء، فالكل بقضائه وقدره، مما يحمل العبد على بذل المزيد من العبادة والطاعة لله، بالتعامل مع الضراء والسراء بمرضاة الله تعالى، وهذا من الأسباب التي حملتني على الكتابة في هذا الموضوع.

والله تعالى لم يأمر عباده بما لا يطيقون، ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولذا ضرب الله لنا الأمثلة في كتابه بخيرة خلقه الذين تعاملوا مع أقداره المؤلمة بما نالوا به رضاه، وحققوا عبادته، وخففوا من ألم المصيبة على أنفسهم؛ لما رضوا بقدره؛ بل صارت نعمةً بصبرهم؛ لما رَتَّبَ الله عليها من جزاء.

كما أن في هذا البحث محاولةً لبيان ما جاء في القرآن عن أحوال المؤمن تجاه الضراء؛ شحذاً للهمم، للامتثال بما فيه من أمر، والتصديق بما فيه من خبر،

(١) انظر مدارج السالكي (٢/ ٢٢٤- ٢٢٥)، بتصرف.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزُّهد وَالرَّقائق، باب الْمُؤْمِن أمره كلّه خَيْر، (٤/ ٢٢٩٥) برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيبٍ الرومي رضي الله عنه.

والاقتداء بما فيه من قصص خير البشر.

منهج البحث: تتبعت في هذا البحث -تتبعًا استقرائيًّا- الآياتِ التي تحدثت عن أحوال أهل الإيمان؛ من الأنبياء وأتباعهم حال الضراء، وكيف قابلوها؟ سواء في جانب توحيد الله تعالى والإيمان بقضائه وقدره، وما يتبع ذلك من عدم نسبة الضرِ إليه، وإظهار الافتقار له سبحانه في كشفه، أو في جانب ما تقابل به تلك الأقدار من الصبر والاحتساب وعدم التسخط، أو في جانب ما تحدثه من أثر في نفس العبد من تهذيب الطبع، ولين القلب، والعودة إلى الله؛ تضرعًا واستكانةً، مستشعرًا أنَّ الله لا يُخَيِّبُ رجاءَ من دعاه في كشف ضره وبلواه؛ فما ابتلاه إلا ليرى ضراعته واستكانته، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤]، فلا يزال العبد متضرعًا إلى ربه مما يزيد في تعلقه به، مستشعرًا أنه ما أُتِيَ إلا من قِبل نفسه؛ وبسبب تفريطه: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى: ٣٠]؛ الأمر الذي يؤدي إلى زيادة الإيمان واليقين في تحمل أكدار الدنيا؛ تشوفًا لمرضاة الله وثوابه، وما عنده من نعيم لا ضر فيه ولا كدر، ﴿ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴾ [القمر: ٥٥].

ثم ختمت البحث بذكر نماذج من أحوال الأنبياء والصالحين، وما كانوا عليه عند حصول الضراء.

وقد بذلت ما في وسعي على إخراجه على الصورة المرضية، لكنه عمل بشر، النقص ملازم له، ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾[النساء: ٨٢] ، فما كان فيه من صواب فالفضل فيه لله وحده، وما كان فيه من زلل فمني ومن الشيطان، وحسبي أن بذلت ما في وسعي، واسأل الله ستر خطئي، ومن اطّلع فيه على خلل من إخواني فأرجو أن يرشدني إليه على هذا البريد: fh1483@gmail.com جزاه الله خير الجزاء، وله مني خالص الدعاء.

خطة البحث:

تتكون من: مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهارس.

المبحث الأول: تحقيق المؤمن للتوحيد حال الضراء: وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: توحيد الله في كشف الضر.

المطلب الثاني: الرضا بالقضاء والقدر.

المطلب الثالث: إفراد لله بالدعاء والتوسل في كشف الضر.

المبحث الثاني: حال المؤمن في نسبة الضر: وفيه مطلبان:

المطلب الأول: نسبة الضر إلى الله تعالى في تقديره.

المطلب الثاني: نسبة الضر إلى العبد في سببه.

المبحث الثالث: حال المؤمن فيما يقابل به الضر وعاقبتها الحسنة: وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الصبر والتسليم واحتساب الأجر على الله تعالى.

المطلب الثاني: عواقب الصبر على الضر. وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: زيادة الإيمان واليقين وراحة البال وطمأنينة النفس.

المسألة الثانية: رفعة المنزلة في الآخرة وبلوغ الدرجات العلا.

المبحث الرابع: نماذج من أحوال الأنبياء، والصالحين عند الضراء: وفيه ستة مطالب :

المطلب الأول: نبي الله إبراهيم عليه السلام.

المطلب الثاني: نبي الله أيوب عليه السلام.

المطلب الثالث: نبي الله يوسف عليه السلام.

المطلب الرابع: نبي الله يونس عليه السلام.

المطلب الخامس: خاتم أنبياء الله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

المطلب السادس: سحرة فرعون .

المبحث الأول

تحقيق المؤمن للتوحيد حال الضراء

إن توحيد الله تعالى أهم ما يجب على العبد معرفته وتحقيقه والتعبد لله تعالى به، بل إنَّ كل عبادةٍ دون وجوده لا قيمة لها، ولا يقبلها الله تعالى، وكل خطيئة دونه فعسى الله أن يغفرها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وإن مما يحمل على توحيد الله تعالى ما يَخُفُّ بالمؤمن من خيرٍ أو ضرٍ؛ لأن الأمر كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣] ، فجلب الخير وكشف الضر من الله وحده لا شريك له، وأعظم مفزعٍ لجلب هذا أو كشف ذاك هو الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧]. وقد جعلت هذا المبحث في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: توحيد الله في كشف الضر:

إن المفزع الذي يجب الهرب إليه عند الضراء لابد أن تجتمع فيه أوصافُ المغيثِ الحقِّ؛ وهو أن يكون سميعًا لنجواك، قادرًا على كشف بلواك، عالمًا بشكواك، وما تصلح به دنياك وأخراك، ومن تأمل القرآن الكريم يجدْه مستفيضًا بالآيات التي تدل على توحيد الرب سبحانه وتعالى، وانفرادِه بذلك من غير شريك أو منازع، وهي قضية مشتركة بين الآيات التي تدل على توحيد الله تعالى في كشف الضر، وقد جاءت سياقات تلك الآيات – إضافة إلى هذه القضية الأم – متنوعةَ الأساليب في ذكر مزيد من الدلائل والقرائن التي تستلزم هذه القضية، وتقررها وتجليها في الأذهان:

* فتارة يأتي السياق القرآني بلفت النظر إلى توحيد الله تعالى في كشف الضر؛ لأنه سبحانه هو المفزع عند الضوائق والخطوب، وعند اشتداد البأساء والضراء، وآنذاك تغيب جميع الآلهة المزعومة التي كانت تُدعى من دونه، ولا يلجأ المضطرُ إلا إليه

وحده سبحانه، وهو الرب الرحيم الذي يستجيب لعبده ويكشف ضره؛ لأنه الإله الحق الذي لا شريك له، ولا منازع، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، وهذا تذكير من الله تعالى بوحدانيته بالتصرف في أحوال الناس التي لا ينفك عنها أحد في بعض شؤون الحياة، كحال الاضطرار إلى تحصيل الخير، أو كشف الضر، أو التصرف في الأرض ومنافعها، فهذه ثلاث أحوال للبشر؛ حال الاحتياج، وحال البؤس، وحال الانتفاع.

فالأولى هي المُضمّنة في قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، فالمضطر هو: ذو الضرورة، أي: الحالة المُحْوِجة إلى الأشياء العسرة الحصول، وهذه مرتبة الحاجيات، فالمرء محتاج إلى أمور كثيرة منفصلة عنه، وبها قوام أَوَدِه، مثل: النكاح، والملابس، والأقوات اللازمة، وقد يتعسرُ بعضها ويعزُّ حصوله بالأسباب المألوفة، والعبد مضطر إليه، فيلجأ إلى الله فيسأله حاجته، وإن كان شأن المؤمنِ الحق ألا يغفل عن دعاءِ ربه والتملقِ إليه طرفةَ عينٍ في شدة أو رخاء.

وحال البؤس هي المشار إليها بقوله: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ والكشف: أصله رفع الغشاء، فشبه السوء الذي يعتري المضطر بغشاء يحول دونه ودون الاهتداء إلى الخلاص؛ تشبيهاً للمعقول بالمحسوس.

والمعنى: من يزيل السوء ويكشفه عن المستاء إذا دعاه إلا الله تعالى.

وحال الانتفاع هي المشار إليها بقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يجعلكم مالكين للأرض تعمرونها، وتجتنون منافعها، والملك يستلزم الانتفاع [1].

وإن من تأمل أحوال الناس يجد أن توحيد الله في كشف الضر هو الأمر الذي يتبادر إلى قلب المضطر بلا مزاحم حال الاضطرار، كما قال النبي ﷺ لوالد عِمْرَانَ

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٠/ ١٤- ١٥).

بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «**يَا حُصَيْنُ كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا**»؟ قَالَ: سَبْعَةً؛ سِتَّةٌ فِي الأَرْضِ وَوَاحِدٌ فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «**فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟**» قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ، فَقَالَ: «**يَا حُصَيْنُ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَسْلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَيْنِ تَنْفَعَانِكَ**»، فَلَمَّا أَسْلَمَ حُصَيْنٌ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي الَّذِي وَعَدْتَنِي، قَالَ: « **قُلِ اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي**»(١). فنجد المضطر يتقلب في جمع أحواله وهيئاته موحدًا الله تعالى في دعائه بأن يكشف كربته؛ متوسلًا إليه راجيًا رحمته؛ يفعل ذلك في جميع أحواله؛ حال قيامه أو قعوده أو وهو على جنب قد أقعده المرض، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢]، وكأن الآية تشير إلى تفاوت أحوال الناس في مس الضر لهم، أو تفاوت درجات الضر بالنسبة لكل إنسان، وفي جميع تلك الأحوال المدعو هو الله وحده لا شريك له، لكن ما أكثر ما ينكث الإنسان ويعود في غيّه، وينسى أنَّه لم ينفعه حال ضره إلا الله، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾[الزخرف: ٥٠]، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ . ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٥٣، ٥٤].

* وتارة يأتي السياق القرآني بلفت النظر إلى كمال قدرة الله تعالى في كشف الضر، وأنه لا منازع له في ذلك، بذكر الدليل الحسّيّ من الواقع الملموس الذي كشف الله فيه ضر من وحَّدَه ودعاه قال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب (٧٠) (٥/ ٤٨٥) برقم (٣٤٨٣)، والطبراني في كتاب الدعاء (٣/ ١٤٥٠- ١٤٥١) برقم (١٣٩٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات ص (٥٣٤) وقال: ومعنى قوله في هذه الأخبار: «من في السماء». أي: فوق السماء على العرش، كما نطق به الكتاب والسنة، وقال بعض أهل النظر: معناه من في السماء إله؟ والأول أشبه بالكتاب والسنة، وبالله التوفيق. أهـ. والحديث ضعفه الألباني كما في ضعيف سنن الترمذي ص (٤٥٢) برقم (٦٩٠).

وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنبياء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ . فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣ – ٨٤]، وقال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ . فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧ – ٨٨].

* وتارة يأتي السياق القرآني بمقدمةٍ مستقرةٍ في أذهانِ المخاطبين، من شأنها أن تحملهم على توحيده، وألّا يعتقدوا في غيره جلبَ نفعٍ أو دفعَ ضرٍ، مع بيان أن ما سوى الله عاجزٌ عن أن يملك ذلك لنفسه، فكيف يملكه لغيره؟! أو بيان الأوصاف المتضادة في الخير والشر بين الموحد والمشرك، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦]، ويضيف السياق أحيانًا نفي أوصاف الألوهية عما سوى الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣]، بل ينفي القرآن أحيانًا أن يملك أحدٌ شيئًا لمن أراد الله به ضرًّا أو نفعًا، قال تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [الفتح: ١١]، فلا عاصم لمن أراد الله به نفعًا أو ضرًّا، ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٧]، وما يتوجهون إليه بالدعاء من معبودٍ سوى الله فلا استطاعةَ له، ولا حيلةَ عنده في كشف ما يصابون به من بؤس وشدة، ولا نقلَ هذه الشدةِ أو تحويلَها إلى حالٍ أخرى هي أيسرَ منها، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ

عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦][(١)]، وإنما ذلك من صفات الله تعالى لا شريك له؛ مما يدل على توحيد الله تعالى في رفع الضر حال نزوله، أو دفعه عند تهيء أسبابه؛ قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد: ١١].

* وتارة تُعَرِّضُ الآيات بما يعبد من دون الله وهو لا يملك ضرًّا ولا نفعًا؛ مبينةً أنَّ كشفَ الضرِ وجلبَ النفعِ -وهو من توحيد الربوبية- مستلزمٌ لتوحيد الألوهية؛ فلا تصحُّ العبادة ولا تنبغي إلا لمن يملك ذلك، مع بيان بعض أوصاف المعبود حقًّا التي تقتضي قدرته على ذلك، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [المائدة: ٧٦].

* وتارة تدل الآياتُ على توحيد الله تعالى في كشف الضر، وذلك بنفيه عن أخص الناس وأولاهم بالله تعالى وأتقاهم له، وهم أنبياء الله ورسله، بل حتى عن خاتمهم وسيدهم محمدٍ ﷺ؛ إذن فنفيُ ذلك عمن هو دونهم من باب أولى وأحرى؛ ومما يزيد الأمر تأكيدًا أن ذلك عقيدة يعتقدها أولئك الأنبياء، ويدينون الله تعالى بها، ويدعون الخلق إليها؛ ولذا جاء نفيُ ذلك عن أنفسِهم على ألسنتهم، صلوات الله وسلامه عليهم، قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] ، وقد عُنيتِ الآياتُ بذكر الدليلِ المحسوسِ؛ وهو: أن لو كانوا يملكون من ذلك شيئًا لاستكثروا لأنفسهم من الخير عند سنوحه، وحذروا من الشر قبل وقوعه، ولكن ينالهم من ذلك ما ينال غيرهم بل أشد[(٢)]. وإنما مَرَدُّ الأمر في ذلك

(١) انظر الوسيط للواحدي (٣/ ١١٢- ١١٣).

(٢) يشهد لذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٤٥- ٤٦) برقم (١٤٨١) شاكر، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء (٤/ ٥٢٠) برقم (٢٣٩٨) وابن ماجه في سننه، كتاب

لله وحده، وهو الذي يَتضرعُ إليه الأنبياء أنفسُهم، ويدعونه لا يشركون به شيئًا، ولا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا ضلالًا ولا رشدًا إلا بأمر الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا. قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا. قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢٠ – ٢٢].

* وتارة يأتي السياق القرآني بنفي أدنى أوصافِ المُعين الذي يملك أدنى شيء من النفع أو الضر؛ ولو كان مجرد القدرة على الكلام والمراجعة لمن يؤملُ فيه ذلك، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ. أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٨ – ٨٩].

* وتارة يأتي السياق القرآني بلفت النظر إلى توحيد الله تعالى في كشف الضر ببيان أوصاف من يملك ذلك حقيقة، ومن هو أهل أن يستعاذ به، ويلجأ إليه، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ. مَلِكِ ٱلنَّاسِ. إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ. مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ. ٱلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ. مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١-٦].

المطلب الثاني: الرضا بالقضاء والقدر:

إن من أركانِ الإيمانِ الستةِ التي لا يتم إيمانُ العبد إلا بها الإيمانَ بالقضاء والقدر، وهو: الركن السادس من أركان الإيمان، لما في صحيح مسلم من حديث أمير المؤمنين عُمَر بن الخطَّاب ﷺ في قصة مجيء جبريل عليه السلام وسؤالِه النبيَّ ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ... وفيه: قال: فأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قال: «**أَنْ تُؤْمِنَ**

الفتن، باب الصبر على البلاء (٢/ ١٣٣٤) برقم (٤٠٢٣)من حديث سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ، قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً؟ قَالَ: « **الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا، اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ، ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاَءُ بِالْعَبْدِ، حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ، وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ**». وقال الترمذي حسن صحيح. وقال الشيخ أحمد شاكر: صحيح الإسناد وقال الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٢/ ٣٧١) برقم (٣٢٤٩): حسن صحيح .

بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١). وفي صحيح مسلم مِن حَدِيثِ عَبدِ الله بنِ عَمرِو بنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»**(٢).

فقد أخبر الله سبحانه عن عموم قضائه وقدره الذي شمل كلَ ضر ومصيبة تحلُّ بالعبد، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ . لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢ – ٢٣].

وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ؛ صغيرُها وكبيرُها، وأخبر الله عباده بذلك؛ لأجلِ أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ولا يحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم، وتشوفت إليه؛ لعلمهم أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من وقوعه على مراد الله، لا سبيل إلى دفعه البتة، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر، لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومنِّه، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم، ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: متكبر فظ غليظ، معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه، فتطغيه وتلهيه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

ومن تأمل القرآن الكريم وجده مليئًا بالآيات التي تقرر هذا المبدأ، وهي كثيرة جدًّا، وسأقتصر هنا على ما له علاقة بهذا المطلب؛ وهي تلك الآيات التي تتحدث

(١) انظر: صحيح مسلم، كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ بيان الْإِيمَانِ، وَالْإِسْلَامِ، والإحسان ... (١/ ٣٦) برقم (١).
(٢) انظر: صحيح مسلم، كِتَابُ القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٤/ ٢٠٤٤) برقم (٢٦٥٣).

عن رضا المؤمن بالقضاء والقدر، حالَ نزول الضر، وعدم تجزعه وتسخطه من أقدار الله، بل استسلام وتسليم.

قال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١].

قال ابن عون[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «ارْضَ بقضاء الله من عسْر ويسر، فإنَّ ذلك أَقل لِهَمِّك، وَأَبلَغُ فِيمَا تَطلُب من أَمرِ آخِرَتك، وَاعْلَمْ أَنَّ العبد لن يصيب حقيقة الرِّضَا، حَتَّى يَكُونَ رِضَاه عِندَ الفَقرِ وَالبلاءِ، كرضَاهُ عند الغنى والرَّخاءِ؛ كيف تستقضِي اللهَ فِي أَمرِكَ، ثُمَّ تسخط إِنْ رَأَيتَ قَضَاءً مُخَالِفًا لِهَوَاكَ؟! ولعل ما هَوَيْتَ مِن ذَلِكَ، لَو وُفِّقَ لك لكان فيه هلاكُكَ، وترضى قضاءَهُ إِذَا وافقَ هَوَاكَ، وذلك لقلَّةِ عِلْمِكَ بِالغَيبِ؟! إِذَا كُنتَ كذلك، ما أَنْصفْتَ مِن نَفسِكَ، وَلَا أَصَبْتَ بَابَ الرِّضَا». قال ابن رجب: وهذا كلامٌ حَسَنٌ. [(٢)]

وصحَّ عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**»، يا بني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**مَنْ ماتَ على غيرِ هذا فليس منّي**»[(٣)].

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله : «يا بُنيَّ إنك لن تجدَ طعمَ الإيمانِ ...» فيه أن للإيمان طعمًا، وهو كذلك، فإن له حلاوة وطعمًا، من ذاقه تسلَّى به عن

---

(١) هو: عبد الله بن عون بن أبي عون الهلالي أبو محمد البغدادي الخراز، توفي سنة (٢٣١)هـ . انظر تهذيب الكمال (١٥/ ٤٠٢).

(٢) انظر تيسير العزيز الحميد ص (٥٢٢- ٥٢٣) .

(٣) رواه أبو داود في سنه، كتاب السنة، باب في القدر (٤/ ٢٢٥- ٢٢٦) برقم (٤٧٠٠)، والترمذي في سننه كتاب القدر، باب ما جاء في الرضا بالقضاء (٤/ ٣٩٠) برقم (٢١٥٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٨٩٠- ٨٩١) برقم (٣٩٣٣).

الدنيا وما عليها، وقد قال النبي ﷺ:«**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ...**» الحديث[١]، وإنما يكون العبد كذلك إذا كان مؤمنًا بالقدر، إذ يمتنع أن توجد الثلاث فيه وهو لا يؤمن بالقدر بل يُكذِّب به، ويرد على الله كلامه، وعلى الرسول ﷺ مقالته، فإن المحبة التامة تقتضي المتابعة التامة، فمن لم يؤمن بالقدر، لم يكن الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، فلا يجد حلاوة الإيمان ولا طعمه... وقد بين النبي ﷺ كيفية الإيمان بالقدر: كما في حديث جابر رضي الله عنه أنه ﷺ قال: « **لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَه**»[٢].

وحال المؤمن الحقِّ -كما بينها القرآن- أن يؤمن بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وأن ما قدره الله تعالى في الأزل، كائنٌ لا محالة، وما لم يقدره يستحيل وقوعه، وبأنه تعالى قدَّرَ الخيرَ والشرَّ قبل خلق الخلق، وأن ذلك كلَّه من الله، لا يجري في سلطانه إلا ما يشاء، ولا يحصل في ملكه إلا ما سبق به القضاء، لا مهرب للعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوة له على طاعته إلا بمعونته وإرادته، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ولا راد لأمره. ومن تحقَّقَ منه ذلك جنى ثمارَ الإيمانِ بالقضاءِ والقدرِ، والتي منها:

أولاً: الرضا واليقين بالعوض: قال تعالى:﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[التغابن: ١١] . قال ابن كثير في تفسيرها: «أي:

---

(١) متفق عليه. انظر صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١/ ٦٠) برقم (١٦)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصالٍ من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (١/ ٦٦) برقم (٤٣).

(٢) انظر تيسير العزيز الحميد ص (٦٩٣- ٦٩٤).

والحديث رواه الترمذي في سننه، كتاب القدر، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره (٤/ ٣٩٣) برقم (٢١٤٤) وقال: "حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن ميمون، وهو منكر الحديث " .أهـ. قال الشيخ الألباني رحمه الله في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥/ ٥٦٦) برقم (٢٤٣٩): لكن الحديث صحيح، فإنه جاء مفرقا في أحاديث... ثم ساقها رحمه الله من عشرة طرق .

ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب، واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوّضه عمّا فاته من الدنيا هدًى في قلبه، ويقينًا صادقًا، وقد يخلف عليه ما كان أُخذ منه، أو خيرًا منه، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَهْدِ قَلْبَهُ لِلْيَقِينِ فَيَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ... وفي الحديث المتفق عليه: « **عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[1]، قَالَ سَعِيدُ بنُ جُبَيرٍ :﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ عنِي يَسْتَرْجِعُ يَقُولُ: إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ»[2].

روى مسلم في صحيحه مِن حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**»، قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا فَأَخْلَفَ اللهُ لِي رَسُولَ الله ﷺ[3].

ثانيًا: انشراح الصدر، وسعادة القلب، وطمأنينة النفس، وراحة البال: قال عمر بن عبد العزيز: أصبحت ومَا لِيَ سرورٌ إلا في مواضع القضاء والقدر[4].

قال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١].

الإيمان بالقدر يجعل المؤمن صابرًا، قويَّ الاحتمال، وكل أحد لا بد له من الصبر، فهو من جميل الخلال، ومحمود الخصال، ومن سمات الرجال، ومن لم يصبر صبر

(١) كذا في تفسير ابن كثير- المتفق عليه – وهو في صحيح مسلم فقط، وتقدم تخريجه.

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٩١- ٢٩٢).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة (٢/ ٦٣١) برقم (٩١٨).

(٤) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/ ٥٠٩).

الكرام؛ سلا سلوَّ البهائم، قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: «وجدنا خير عيشنا بالصبر»(١) ؛ لذا تجد المؤمن بالقَدَر صبورًا متجلِّدًا، يتحمل المشاق، ويتجاوز المصاعب والآلام، بخلاف ضعيف الإيمان الذي لا يقوى على احتمال ذلك، فإنه يجزع لأتفه الأسباب، بل ربما أدى به الجزع إلى الوساوس والأمراض النفسية والهرب إلى المخدرات والانتحار، ولو آمن بالقضاء والقدر لرأيت قوة الرجاء وإحسان الظن بالله، فإن الله -تعالى- لا يقضي قضاءً إلا وفيه تمام العدل، وكمال الرحمة والحكمة؛ فلا يتّهم ربه فيما يُجري عليه من أقضيته وأقداره؛ وذلك يوجب له استواءَ الحالات عنده، ورضاه بما يختاره له سيده، وانتظارَ الفَرَجِ وترقُّبَه، بل يخفف ذلك من حِمْلِ المشقة، لا سيما مع قوة الرجاء فإن في حشو البلاء من روح الفرج ونسيمه وراحته ما هو من خفي الألطاف، بل هو فرجٌ معجل(٢).

المطلب الثالث: إفراد لله بالدعاء والتوسل في كشف الضر:

إن أقرب الوسائل إلى غوث المضطر هو الدعاء الذي يتوجه به لأعظم قوةٍ يعلمها في الوجود، والتي دل الحسُّ والعقل والشرع على كمال تلك القوة، وسرعة الاستجابة لمن توجه إليها، وأنه لا شيء يستحيل أمامها، إنه الله القوي العزيز، الفعال لما يريد، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

إنَّ التوجهَ إلى الله عند الشدائد، فطرة ركزها سبحانه في نفوس خلقه، والإنسان يعلم في قرارة نفسه أنه ضعيف عاجز، وأن الله هو القوي القادر، ولذا يلجأ إليه في الشدائد والضوائق، لا يشرك معه غيره، لكن الكثير من الناس ما أن يُذهب الله عنه الشدة حتى يعودَ للشرك والمعصية، وقد حفل كتاب الله عَزَّوَجَلَّ بالدلائل القرآنية التي تدل على ذلك؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ

---

(١) أخرجه البخاري معلقا. انظر: صحيح البخاري -مع الفتح - كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله (١١/ ٣٠٢-٣٠٣).

(٢) انظر: الإيمان بالقضاء والقدر، للشيخ: محمد بن إبراهيم الحمد، (١/ ٦٢).

تَجْـَٔرُونَ . ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ . لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥٣ – ٥٥]، ونظائرها كثير.

فبيّن –سبحانه– في هذه الآية الكريمة أن فضلَه سابقٌ على خلقه، كما في صحيح البخاري من حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ، أنه سمع رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ**»[(١)]. فما أحدقَ بالخلق من نعم فبمحض فضل الله تعالى، ولما تقدم قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـَٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١]، وفيها إبطال لمن زعم بوجود إلهين اثنين؛ أحدهما للخير والآخر للشر، أعقبه سبحانه في هذه الآية بأن الخير والضر بتقدير الله تعالى؛ فهو واهب النعمة، وكاشف الضر، والباء في قوله: ﴿ وَمَا بِكُم ﴾ للملابسة، أي ما لابسكم واستقر عندكم من نعمة فإنما هي واصلة إليكم من الله، والمقصود: تقرير أن الله تعالى هو مدبر أسباب ما بهم من خير وشر، وأنه لا إله يخلق إلا هو، وأنهم لا يلتجئون إلا إليه إذا أصابهم ضر؛ وهو الأسقام والأوجاع والقحط والزلازل والحاجة والفقر، وغير ذلك من الأمور التي تضر الخلق. ومس الضر حلوله، استعير المس للإصابة الخفيفة إشارة إلى ضيق صبر الإنسان، إذ يجأر إلى الله بحصول أدنى شيء من الضر. والجؤار: رفع الصوت بالصراخ والتضرع[(٢)]. وتقديم الجار والمجرور في قوله تعالى:﴿ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ للدلالة على اختصاص التوجه بالاستغاثة إلى الله وحده دون شركائهم.

ثم أتبع هذه بنعمة أخرى وهي نعمة كشف الضر عنهم، ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾، وجيء بحرف العطف "ثم" وهي للتراخي

---

(١) انظر: صحيح البخاري مع الفتح، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ . فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج: ٢١ – ٢٢]، ﴿وَٱلطُّورِ . وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾ [الطور: ١– ٢] (١٣/ ٥٢٢) برقم (٧٥٥٤).

(٢) انظر: لسان العرب مادة (جأر) (٤/ ١١٢– ١١٣).

الرتبي؛ لأن مضمون الجملة المعطوفة أبعد في النظر من مضمون المعطوف عليها؛ فإن الإعراض عن المنعم بكشف الضر، وإشراك غيره به في العبادة أعجب حالًا وأبعد حصولًا من اللجوءِ إليه عند الشدة.

والمقصود تسجيل كفران المشركين، وإظهار رأفة الله بالخلق؛ حيث يكشف الضر عنهم عند التجائهم إليه، مع علمه بأن منهم من يعود إلى شركه بعد كشف الضر عنه، و"إذا" الثانية فجائية؛ للدلالة على إسراع هذا الفريق بالرجوع إلى الشرك، وأنه لا يتريث إلى أن يبعد العهد بنعمة كشف الضر(١).

هذه حال المشرك في التعامل مع الضر عند حلوله، وقد جاءت الآيات القرآنية مستفيضة في هذا.

لكن حال المؤمن على خلاف ذلك؛ فهو يتعامل بمرضاة الله تعالى حال الرخاء وحال الشدة، وحال دفع الضر أو رفعه، لا يدعو إلا الله، ولا يتوجه إلى غيره أبدًا، قد امتلأ قلبه يقينًا أنه لا كاشف للضر ولا جالب للخير إلا الله، مستشعرًا قول الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧] قد وطّن نفسه ابتداء على ذلك، وتعبد لله به، مما جعل وقوع المصيبة عليه عند حصول الضر أهون منه على غيره، وكلما كمل إيمان المؤمن كلما كان أشدَّ اطمئنانًا وقبولًا لأقدار الله، مهما عظم ما يترتب عليها من ضر، موحدًا الله في ذلك؛ إن أصابه فضل نسبه إلى الله وشَكَرَه عليه، وإن أصابه ضر نسبه إلى نفسه وصبر واحتسب، مستصحبًا توحيد الله تعالى وقربه منه، لا يتوجه لدعاء غيره، ولا يتضرع إلا إليه سبحانه، طاعةً له وامتثالًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] مقدمًا الطاعة والعبادة حال الرخاء فيجد ربًّا رحيمًا

(١) انظر: التحرير (١٤/ ١٧٦- ١٧٨).

حال الضراء، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ولذا لما دعاه نبيه يونس عليه السلام عند مس الضر استجاب له، وكشف ضره لِمَا كان يصنعه في الرخاء، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣ – ١٤٤]، وهذه هي حال عباد الله وأوليائه، دعاء ربهم وخالقهم في الرغب والرهب، عند الخوف وعند الطمع؛ لذا قربت رحمة الله منهم، وعجَّل استجابته لهم، قال تعالى: ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦] ولذا لما ذكر الله قصص أنبيائه – في سورة سميت باسمهم– وما مسهم من ضر، وكيف كشف الله عنهم ذلكم الضر عندما دعوه وتضرعوا إليه، أعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠] كالتعليل لاستجابة دعائهم، ولنا فيهم أسوة، لاسيما وقد قال سبحانه وتعالى في السورة نفسِها، وبعد استجابته دعاء أحدهم: ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٨]. وفي الحديث عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**دعوة ذي النون إذ دعاه وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له**»(١).

وقد وصف الله أهل الإيمان بآياته الذين أخفى لهم من الكرامة ما قال عنه رَسُولُه ﷺ: «**قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن**

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد (٥/ ٤٩٥) برقم (٣٥٠٥) واللفظ له والنسائي والحاكم وقال صحيح الإسناد، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ١٦٨ – ١٦٩) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ١٣٠) برقم (١٦٤٤).

قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾»[1] وصفهم بما وصف به أنبياءه بأنهم يدعون ربهم خوفًا من عذابه، وطمعًا في رحمته، بعد أن وصفهم بتعظيمهم لآيات الله، وانقيادهم وخضوعهم لها، وتنزيههم لله تعالى بألسنتهم وجوارحهم، في أخص الهيئات ذلاً لله، وقربًا منه، حين السجود له، وفي أخص العبادات وأحبها له، وهي الصلاة، وفي أخص الأوقات وأفضل ما تكون فيه تلك العبادة وهو الليل، حال كونهم خاضعين لله، متذللين له، فبشرهم بما أخفى لهم من عظيم الثواب والجزاء؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ . فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٥- ١٧].

مما يدل على أن من صدق في دعاءِ الله، والتضرع إليه، فلن يخيِّبه؛ إذ لا مجيب لدعوة المضطر، ولا كاشف للسوء، سوى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢]، ومن توجه إلى غيره فلا أضل منه؛ إذ كيف يدعو من دون الله من لا يستجيب له ولا يملك له نفعًا ولا ضرًّا، ولو دعاه إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥].

إن دعاء الله تعالى والتضرع إليه من أعظم العبادات التي يتقرب بها المؤمن إلى ربه، وينال بها الدرجات العلى، حيث أخبر سبحانه عن أهل الجنة أن مما يدور بينهم من الحديث هناك إخبارهم بأن من سبب ما هم فيه من النعيم أنهم كانوا في هذه الدنيا

(١) متفق عليه من حديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ. انظر صحيح البخاري مع الفتح، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٦/ ٣١٨) برقم (٣٢٤٤) ، وصحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيها وأهلها، (٤/ ٢١٧٤) برقم (٢٨٢٤).

وجلين خائفين من الله، موحدينه بالتضرع والدعاء، قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ. قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ. فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ. إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥-٢٨].

وهذا هو الحق والعدل الذي أمر الله به، وصراطه المستقيم الذين يسير عليه عباده وأولياؤه الصادقون؛ الإخلاص له في الدعاء؛ سواءٌ في دعاء العبادة أم دعاء المسألة، قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وأن يتخير المؤمن عند دعائه ما يتناسب مع حاله من أسماء الله وصفاته الحسنى، الدالة على كماله وعظمته، والتي من تمام حسنها ألّا يُدعى الله إلا بها، كما أمر، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وعلى العبد أن يحذر كل الحذر من الميل بأسماء الله وصفاته عن قصدها الذي جعلت له؛ كأن يعتقد في غير الله ما هو من خصوصيات الله، ككشف الضر، أو جلب النفع، فإن أدنى ميل في ذلك خطرُه عظيم، وجزاؤه وخيم؛ إذ جعل لله شريكًا فيما هو من خصائصه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]، وهذا من كمال توحيد الله؛ أن يخلص له في الدعاء سواءٌ في كشف الضر، أو جلب النفع، وسواء في دعاء العبادة أم دعاء المسألة، ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

المبحث الثاني

حال المؤمن في نسبة الضر

المطلب الأول: نسبة الضر إلى الله تعالى في تقديره:

إن من كمال مُلك الرب سبحانه وتعالى ألّا يقعَ شيء في ملكه إلا بعلمه، وقضائه وقدره، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام:١٠١]، فامتدح سبحانه نفسه بأنه خلق كل شيء، وبأنه يعلم كل شيء، فكما لا يخرج عن علمه شيء كذا لا يخرج عن خلقه شيء حتى الخير والشر، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ . مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق:١– ٢]، فأثبت سبحانه لنفسه أنه خالق الشر، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾[الملك:٢] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ [النجم: ٤٤] فخلق سبحانه الأشياء وأضدادها؛ فالأفعالُ كلها خيرُها وشرُها صادرةٌ عن خلقه وإحداثه إياها[(١)]، وقال تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا . مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾[النساء: ٧٨ – ٧٩]، فأثبت الحق لنفسه أنه خالق السيئة والحسنة، وهذه الآية من سورة النساء في سياق الحث على الجهاد في سبيل الله، والترغيب فيه، مخبرًا سبحانه عن أولئك القاعدين الذين تمنوا تأخير وجوب الجهاد، أن ذلك القعود لا يدفع عنهم من قدر الله شيئا؛ فلا يغني حذر من قدر؛ فـ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ﴾ من زمان أو مكان ﴿يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ أي: قصور منيعة ومنازل رفيعة[(٢)].

ثم أخبر سبحانه عن حالهم ومقالهم عندما تصيبهم حسنة أو سيئة فقال تعالى:

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٥٣٢).

(٢) انظر: تفسير السعدي (١/ ٤١١).

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ أي: خصب الديار، وتوفر الرزق والزروع والثمار، وأن تلد نساؤهم الغلمان، وتنتج خيولهم وأنعامهم ومواشيهم، ويحسن حالهم ونحو ذلك ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: الجدب والضرر في أموالهم، ونقص في الثمار والزروع، أو موت الأولاد والنتاج ونحو ذلك، تشاءموا بمحمدٍ ﷺ وقالوا: ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ﴾ أي: من قبلك وبسبب اتباعنا لك، وتركنا ديننا واقتدائنا بدينك، أصابنا هذا البلاء، يتشاءمون بالنبي ﷺ كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وكما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]، وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهرًا، وهم كارهون له في نفس الأمر؛ ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتِّباعهم للنبي ﷺ، فرد الله تعالى عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ أي: الجميع بقضاء الله وقدره وخلقه؛ الخير والشر، والحسنة والسيئة، وهو نافذ في البر والفاجر، والمؤمن والكافر، لا مناص منه ولا خلاص.

ثم قال تعالى منكرا على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب، وقلة فهم وعلم، وكثرة جهل وظلم: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾، ثم قال تعالى مخاطبًا للرسول ﷺ والمراد جنس الإنسان: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ أي: في الدين والدنيا ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ﴾ أي: من فضل الله ومنّه ولطفه ورحمته، وهو الذي يسّر أسبابها ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ أي: فمن قبلك، وبسبب ذنبك وخطيئتك كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، ثم أخبر سبحانه عن عموم رسالته: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ﴾ أي: تبلغهم شرائع الله، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: على أنه أرسلك، وعلى أنك بلغتهم، وعلى من سمع

وأطاع منهم ومن أعرض وعصى[١].

فبين الحق -تبارك وتعالى- في هذه الآية الكريمة أن الخير والشر، والنفع والضر؛ كلٌّ بقضاء الله وقدره: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، ولاشك أن وراء ذلك من الحكم العظيمة ما تقصر عن إدراك الكثير منه أفهام العباد، لكن من توقير الله تعالى وحسن الأدب معه أن يضاف الخير إليه ، وأما الشر فيضاف إلى العبد؛ ولهذا تأدب العارفون من عباده بهذا الأدب، فأضافوا إليه النعم والخيرات، وأضافوا الشرور إلى محلها، وكذلك هي طريقة القرآن ومنهجه[٢]، فتارة يضيف الشر إلى سببه ومن قام به، كقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨]، وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [النساء: ١٦٠]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾[الأنعام: ١٤٦]، وقوله:﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وهو في القرآن أكثر من أن يذكر هاهنا عشر معشاره، وإنما المقصود التمثيل، وتارة يحذف فاعله كقوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، فحذفوا فاعلَ الشرِّ ومريدَه، وصرحوا بمريد الرشد، ونظيره في الفاتحة قوله تعالى:﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[الفاتحة:٧]، فذكر النعمة مضافة إليه سبحانه، والضلال منسوبًا إلى من قام به، والغضب محذوفًا فاعله، ومثله قول الخضر في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وفي الغلامين ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢] ومثله قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾[الحجرات: ٧] ، فنسب الخير إلى ذاته المقدسة؛ تزيين الإيمان وجعله محبوبًا لنفوس المؤمنين، وتكريه الكفر والفسوق والعصيان، وقال:﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ [آل

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٢- ١٦٧) والسعدي (١/ ٤١٣).

(٢) انظر شفاء العليل (٢/ ٤٢).

عمران:١٤]، فحذف الفاعلَ المُزيِّنَ، ومثله قول الخليل عليه السلام: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ . وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ . وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ . وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ . وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ – ٨٢]، فنسب إلى ربه كل كمال من هذه الأفعال، ونسب إلى نفسه النقص منها، وهو المرض والخطيئة(١).

وهكذا كان يصنع أعرف الخلق بالله ﷺ، ففي صحيح مسلم من حديث عَلِيِّ بن أبى طالب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ كان إذا قَامَ إلى الصَّلاة قال: «**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاَقِ لاَ يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لاَ يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلاَّ أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**»(٢).

قال النووي رحمه الله: قال الخطابي وغيره: فيه الإرشاد إلى الأدب في الثناء على الله تعالى، ومدحه بأن يضاف إليه محاسن الأمور دون مساوئها على جهة الأدب؛ لأن مذهب أهل الحق أن كل المحدثات فعل الله تعالى وخلقه، سواء خيرها وشرها. ثم ذكر رحمه الله في تأويل قوله في الحديث: «**وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**» خمسة أقوال لأهل العلم.

أحدها: معناه: لا يتقرب به إليك.

والثاني: لا يضاف إليك على انفراده، لا يقال: يا خالق القردة والخنازير، ويا رب

---

(١) انظر بدائع الفوائد (٢/ ٢١٤، ٢١٥).

(٢) انظر صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١/ ٥٣٤-٥٣٦) برقم (٧٧١).

الشر ونحو هذا، وإن كان خالقَ كل شيء، وربَ كل شيء، وحينئذ يدخل الشر في العموم.

والثالث: معناه: والشر لا يصعد إليك، إنما يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح.

والرابع: معناه: والشر ليس شرًّا بالنسبة إليك، فإنك خلقته بحكمة بالغة، وإنما هو شر بالنسبة إلى المخلوقين.

والخامس: أنه كقولك: فلان إلى بني فلان. إذا كان عداده فيهم أو وصفوه معهم [(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن معنى قوله ﷺ: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**» ... يتضمن تنزيهه في ذاته ﷻ عن نسبة الشر إليه بوجه ما؛ لا في صفاته ولا في أفعاله ولا في أسمائه، وإن دخل في مخلوقاته كقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَلَمْ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١، ٢]»[(٢)]

فالنفي في الحديث يقتضي امتناع إضافة الشر إلى الله تعالى بأي وجه؛ فلا يضاف إلى ذاته، ولا صفاته، ولا أسمائه، ولا أفعاله، ولا يصدر منه سبحانه، فإن ذاته منزهة عن كل شر، وصفاته كذلك؛ إذ كلها صفات كمال ونعوت جلال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وأسماؤه كلها حسنى، وكمال ليس فيها اسم ذمٍّ ولا عيب، وأفعاله كلها حكمة ورحمة وفضل ومصلحة وإحسان وعدل، لا تخرج عن ذلك البتة، وهو المحمود على ذلك كله، فيستحيل إضافة الشر إليه، وبأي وجه ينسب الشر إليه سبحانه وتعالى، فكل ما يأتي منه فله عليه الحمد والشكر، وله فيه النعمة والفضل، وليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، وكونها ذنوبًا تأتي من العبد نفسه، فإن سبب الذنبِ الظلمُ والجهلُ، وهما من نفس العبد، كما أن سبب الخير الحمد والعلم والحكمة والغنى، وهي أمور ذاتية للرب، وذات الرب -سبحانه- مستلزمة للحكمة

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٥٩).

(٢) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢١٤).

والخير والجود، وذات العبد مستلزمة للجهل والظلم، وما فيه من العلم والعدل فإنما حصل له بفضل الله عليه، وهو أمر خارج عن نفسه، فمن أراد الله به خيرًا أعطاه هذا الفضل، فصدر منه بوحيه من الإحسان والبر والطاعة، ومن أراد به شرًّا أمسكه عنه وخلاه ودواعيَ نفسه وطبعه وموجبها، فصدر منه موجب الجهل والظلم من كل شر وقبيح، وليس منعه لذلك ظلمًا منه تعالى، فإنه فضله، وليس من منع فضله ظالمًا، لا سيما إذا منعه عن محل لا يستحقه، ولا يليق به، وأيضًا فإن هذا الفضل هو توفيقه وإرادته من نفسه أن يلطف بعبده، ويوفقه ويعينه، ولا يخلى بينه وبين نفسه، وهذا محض فعله وفضله، وهو سبحانه أعلم بالمحل الذى يصلح لهذا الفضل، ويليق به، ويثمر فيه، ويزكو به. وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] ، فأخبر سبحانه أنه أعلم بمن يعرف قدر هذه النعمة ويشكره عليها [(١)].

وما تقدم تحقيقه هو صنيع العارفين بالله، وهو ما دلَّ عليه القرآن، وهو الذي تتحقق به العبادة وتكمل؛ لأن المرادَ من العبادة الذلُ للمعبود، ولا يتحقق ذلك إلا بنسبة الخير والفضل إلى الرب، والشرِّ والنقصِ إلى العبد، ولهذا المعنى لما قام آدم عليه السلام مقام العبودية قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، فلما التقى بموسى عليه السلام قال له: «أتلومني على أمر قدَّرَه الله عليَّ»[(٢)]، وكذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: أقول برأيي فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأ فمني[(٣)].

---

(١) انظر طريق الهجرتين ص(٢١٦)، ومدارج السالكين (٢/ ٣٣٨).

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، انظر: صحيح البخاري مع الفتح كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله (١١/ ٥٠٥)، برقم (٦٦١٤)، وصحيح مسلم، كتاب الْقَدَرِ، بَابُ حِجَاجِ آدَمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، (٤/ ٢٠٤٢) برقم (٢٦٥٢).

(٣) رواه النسائي في سننه، كتاب النكاح، باب إِبَاحَةُ التَّزَوُّجِ بِغَيْرِ صَدَاقٍ (٦/ ١٢١) برقم (٣٣٥٤)، وابن حبان في صحيحه (٩/ ٤٠٩) برقم (٤١٠٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٢/ ٧٠٦) برقم (٣١٤٥).

ومما يزيد الأمر بيانًا ويجليه في الأذهان يقينُ العبد المسلم بما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، أنّ من أسماء الله تعالى الحكيم؛ فالحكمة وصف لازم لكل أفعاله، ولكل ما أمر به وخلقه وقضاه وقدره، فكل ذلك خير وحكمة من جهة إضافته إلى الرب ﷻ، وإنما الشر فيه من جهة إضافته إلى العبد، كما دلَّ عليه قوله ﷺ: «**وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»، فالحسنة مضافة إلى الرب جلَّ في علاه؛ لأنه أحسن بها من كل وجه، وبكل اعتبار، فما من وجه من وجوهها إلا وهو يقتضي إضافتها إليه، وأما السيئة فهو سبحانه إنما قدرها وقضاها لحكمته، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه، فإن الرب سبحانه لا يفعل سوءًا قط، كما لا يوصف به ولا يسمى باسمه، بل فِعْلُه كله حسن وخير وحكمة، فهو لا يخلق شرًّا محضًا من كل وجه، بل كل ما خَلَقَه ففي خَلْقِه مصلحة وحكمة، وإن كان في بعضه شرٌ جزئيٌ إضافي، وأما الشر الكلي المطلق من كل وجه فهو -تعالى- منزه عنه، وليس إليه، «**وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»(١).

المطلب الثاني: نسبة الضر إلى العبد في سببه:

إنه ما من ضُرٍّ أو بلاءٍ وشرٍ يحصل للعبد في الدنيا والآخرة إلا وبسببٍ من العبد نفسه، فإن الله تعالى ربط الأسباب بمسبباتها؛ فليس في الوجود شر إلا والذنوبُ موجباتُه، وكونها ذنوبًا تأتي من العبد نفسه، فإن سبب الذنب الظلم والجهل، وهما أمران لازمان لذات العبد، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢](٢).

وعلى قدر بعد العبد عن الذنوب يعافيه الله من موجباتها، ولولا عظيم عفوِ الله ومغفرتِه وسعةِ رحمتِه لأدركَ شؤمُ معصيةِ الإنسانِ دوابَّ الأرض كلها؛ لشناعته وعظيم جرمه، وما يترتب عليه من فساد؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا

(١) انظر: طريق الهجرتين ص(٢١٦)، وشفاء العليل (٢/ ٤٢- ٤٣).

(٢) انظر: طريق الهجرتين ص(٢١٦).

كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴾ [فاطر: ٤٥]، أي: لو عامل الله العباد بعدله على ما كسبوا من السيئات لاستوعبت عقوبتهم حتى الحيوانات غير المكلفة، كما حصل في زمن نوح عليه السلام حيث هلكت جميع دواب الأرض غرقًا، إلا ما كان منها على ظهر السفينة مع نوح عليه السلام، غير أن الله تعالى حليم لا يَعْجَلُ على الناس؛ لكنه يمهلهم ولا يهملهم (١).

فالعقوبات منوطة بأسبابها، والقرآن مملوء بإثبات الأسباب وترتيب العقوبات عليها، ونسبتها للعبد، كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠]، ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾ [البقرة: ٥٩]، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٦١]، ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ [البقرة: ٩٥]، ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٢]، ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤]، ﴿ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ١٦٠]، وكل موضع رُتب فيه الحكم الشرعي أو الجزائي على الوصف أفاد كونه سببًا له كقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [المائدة: ٣٨]، وقوله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [النور: ٣]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴾ [النحل: ٨٨]، وهذا أكثر من أن يستوعب، وكل موضع تضمّن الشرطَ

(١) انظر تفسير السعدي (٤/ ٢٤٢).

والجزاءَ أفاد سببيةَ الشرط والجزاء، وهو أكثر من أن يستوعب كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقوله: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ [إبراهيم: ٧]، ولا يوجد كتاب من الكتب أعظم إثباتًا للأسباب من القرآن الكريم (١).

إن ترتيب العقوبات على الذنوب أمر ظاهر جليٌّ، يلمسه العبد ويشاهده، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى:٣٠]، وهو أمر يجب أن يحمل العبد على الصبر، ويرده إلى التوبة والإنابة، وهذا عامّ في كل مصيبة دقيقة أو جليلة، فحريٌّ بالعبد أن يشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذى هو أعظم الأسباب في دفع تلك المصيبة، قال على بن أبى طالب رضي الله عنه: ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رفع بلاءٌ إلا بتوبة(٢).

فإن أعمال العبد جند له أو جند عليه ولا بد، فقد تكون جندًا له يدفع الله بها عدوه، أو جندًا عليه يزداد بها عدوه قوة، فللعبد كل وقت سرية من نفسه تهزمه أو تنصره، فهو يمد عدوه بأعماله من حيث يظن أنه يقاتله بها، ويبعث إليه سرية تغزو معه من حيث يظن أنه يغزوه، فأعمال العبد تسوقه قسرًا إلى مقتضاها من الخير والشر، والعبد لا يشعر، أو يشعر ويتعامى، ففرار الإنسان من عدوه وهو يطيقه إنما هو بجند من عمله بعثه له الشيطان واستزله به(٣).

فليس للعبد إذا تسلطت عليه العقوبات بذنوبه شيء أنفع له من التوبة النصوح، وعلامةُ سعادتِه أن يعرف من أَين أُتى؟ ومن أَي الطرق أُغير على سرحه؟ ومن أَي ثغرة سُرق متاعه؟ فينعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه؛ فيشتغل بها

(١) انظر: الشفا (٢/ ٨٣- ٨٥).

(٢) انظر: طريق الهجرتين ص (٥٥٠).

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٣) .

وبإصلاحها والتوبة منها، والله يتولى نصرتَه وحفظَه، والدفعَ عنه ولا بد، فما أسعده من عبد! وما أبركها من نازلة حينئذٍ! وما أحسن أثرها عليه! والتوفيقُ بيد الله يهبه لمن يشاء، ولا حول ولا قوة إلا به[1].

ولئن كان شؤم المعصية مسَّ جناب النبي ﷺ، لما وقعت من أصحابه يوم أحد، فكيف بمن قارفها هو بنفسه؟! أو من هو دون مقام النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. والآية تتحدث عما حصل للصحابة من مصيبةٍ يوم أحد، حيث قتل منهم سبعون، وجرح مَن جرح، وفرّ من فرَّ وكُسرت رباعية النبي ﷺ، وهُشّمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه ﷺ. ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ يعني: يوم بدر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين، وأسروا سبعين ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ﴾ أي: من أين جرى علينا هذا؟ وكيف حصل؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾ أي: من قبل أنفسكم، وبسبب عصيانكم حين أمركم رسول الله ﷺ أن لا تبرحوا من مكانكم فخالفتم أمره، ويفسر هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ أي: أول النهار صدقهم الله ما وعدهم من النصر، ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي: تقتلونهم ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بقضاء الله وقدره حيث سلطكم عليهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾، قال ابن جريج: قال ابن عباس: الفشل

(١) انظر طريق الهجرتين ص (١٥٤).

الجبن، ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾ كما وقع للرماة ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ وهو الظفر منهم ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ثم أداهم عليكم ليختبركم ويمتحنكم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أي: غفر لكم ذلك الصنيع ولم يستأصلكم، ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، ثم قال تعالى في نفس السياق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[آل عمران: ١٥٥]، وهذا خبر عن من تولى من المؤمنين الصادقين في ذلك اليوم، وأنه بسبب كسبهم وذنوبهم السالفة، التي أوقعهم الشيطان في الزلل بسببها، حتى تولوا وفروا، ثم أخبر سبحانه أنه عفا عن ذلك؛ لأنه لم يكن عن نفاق ولا شك، وإنما كان عارضًا ثم عادت شجاعة الإيمان وثباته إلى مركزها ونصابها(١).

وتقدم في المبحث السابق الكلامُ على قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[النساء: ٧٩]، وأن منهج القرآن الذي تأدب به الصالحون والأخيار نسبة الضر إلى العبد، وما يقع فيه العبد من المعصية مصيبة أصابته بتقدير الله، ولكن سببها من العبد نفسه، يوضح ذلك أن الله سبحانه إذا جعل السيئة هي الجزاءَ على المعصية الواقعة من العبد نفسه بقوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[النساء: ٧٩]، فالعمل الذي أوجب الجزاء أولى أن يكون من نفسه؛ فلا منافاة بين أن تكون سيئة العمل من نفسه، وسيئة الجزاء من نفسه، ولا ينافي ذلك أن يكون الجميع من الله قضاءً وقدراً، ولكن هو من الله عدلٌ وحكمةٌ ومصلحةٌ وحسنٌ، ومن العبدِ سيئةٌ وقبيحٌ(٢) .

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٨- ٤٤٩)، وزاد المعاد (٣/ ٢١٣) .

(٢) انظر: الشفا (٢/ ٢٢- ٢٤).

المطلب الثالث: الإخبار عن الضر:

إن مما دل عليه القرآن جواز الإخبار عن الضر، شريطة أن يكون هذا الإخبار مصحوبًا بالرضا والتسليم، وعدم التسخط من قضاء الله وقدره؛ سواء كان هذا إخبارًا محضًا، أم شكوى لمن يَلْتَمِسُ عنده دواءً، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾[يوسف: ٨٨]، فهؤلاء إخوة يوسف عليه السلام لما دخلوا عليه شكوا إليه حالهم، وأخبروه بما أصابهم من الضر، وهو الجوع والفقر والحاجة وقلة الطعام، فالإخبار الذي ليس فيه شكوى الله إلى الخلق ولومُ القدر، لا حرج فيه.

قال القرطبي رحمه الله: «وفي هذا دليل على جواز الشكوى عند الضر، أي الجوع، بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره أن يبدي حالته إلى من يرجو منه النفع، كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه، ولا يكون ذلك قدحًا في التوكل، هذا ما لم يكن التشكّي على سبيل التسخط. والصبر والتجلد في النوائب أحسن، والتعفف عن المسألة أفضل، وأحسن الكلام في الشكوى، سؤال المولى زوال البلوى، وذلك قول يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٨٦] ، أي: أعلم من جميل صنع الله، وقريب لطفه، وعائدته على عباده ما لا تعلمون، فأما الشكوى على غير مُشْكٍ فهو السفه، إلا أن يكون على وجه البث والتسلي»(١).

وقد كان النبي ﷺ إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ويقول: «**كيف تجدُك؟**»(٢). وهذا استخبار واستعلام منه ﷺ عن حال المريض، فلو كان إخبارُ

(١) تفسير القرطبي (٩/ ١٦٥- ١٦٦).

(٢) رواه الترمذي في سننه، كتاب الجنائز، باب (١١) (٣/ ٣١١) برقم (٩٨٣)، وابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له (٢/ ١٤٢٣) برقم (٤٢٦١) منْ حديث أَنَسٍ رضي الله عنه. وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٢/ ٤٢٠) برقم (٣٤٣٦) وأحكام الجنائز ص (١١) برقم (٢).

المريض عن حاله حرامًا ما سأله النبي ﷺ عن ذلك.

والفرقُ بين الأخبار بالحال والشكوى وإن اشتبهت صورتُهما؛ أن الأخبار بالحال يَقصدُ المخبرُ به قصدًا صحيحًا؛ من علمٍ سببِ إدانته، أو الاعتذارِ لأخيه من أمر طلبه منه، أو يحذره من الوقوع في مثل ما وقع فيه، فيكون ناصحًا بإخباره له، أو حمله على الصبر بالتأسي به؛ كما يذكر عن الأحنف أنه شكا إليه رجل شكوى فقال: يا ابن أخي، لقد ذهب ضوء عيني من كذا وكذا سنة، فما أعلمت به أحدًا. ففي ضمن هذا الأخبار من حمل الشاكي على التأسي والصبر ما يثاب عليه المخبر، وصورته صورة الشكوى ولكنَّ القصدَ ميَّزَ بينهما، ولعل من هذا قول النبي ﷺ لما قالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وارأساه فقال: «**بل أنا وارأساه**»(١)، أي: الوجع القوي بي أنا دونك فتأسى بي فلا تشتكي، ويلوح لي فيه معنى آخر وهو أنها كانت حبيبةَ رسول الله ﷺ، بل كانت أحب النساء إليه على الإطلاق، فلما اشتكت إليه رأسها أخبرها أن بِمُحبِها من الألم مثل الذي بها، وهذا غاية الموافقة من المحب لمحبوبه، يتألم بتألمه، ويُسرّ بسروره، حتى إذا آلمه عضو من أعضائه آلم المحب ذلك العضو بعينه، وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة، فالمعنى الأول يُفهمُ أَنَّكَ لا تشتكي واصبري، فبي من الوجع مثل ما بك فتأسى بي في الصبر وعدم الشكوى، والمعنى الثاني يُفهم إعلامَها بصدق محبته لها، أي: انظري قوة محبتي لك كيف واسيتُك في ألمك ووجع رأسك، فلم تكوني متوجعة وأنا سليم من الوجع، بل يؤلمني ما يؤلُمك كما يسرني ما يسرُك.

وأما الشكوى فالإخبار العاري عن القصد الصحيح، بل يكون مصدره السخط وشكاية المبتلي إلى غيره، فإن شكا إليه سبحانه وتعالى لم يكن ذلك شكوى، بل استعطاف وتملق واسترحام له، كقول أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وقول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾

(١) رواه البخاري في صحيحه -مع الفتح- كتاب المرضى، باب ما رخص للمريض أن يقول: إني وجع، أو وارأساه، أو اشتد بي الوجع، (١٠/ ١٢٣) برقم (٥٦٦٦)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

[يوسف: ٨٦]، فالشكوى إلى الله سبحانه لا تنافي الصبر بأي وجه؛ فإن الله تعالى قال عن أيوب: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٤٤]، مع إخباره عنه بالشكوى إليه في قوله ﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾ وأخبر عن نبيه يعقوب عليه السلام أنه وعد من نفسه بالصبر الجميل في موطنين: حين فقد يوسف عليه السلام، وحين فقد بنيامين حيث قال في الموطنين: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨، ٨٣]، والنبي إذا قال وَفَّىَ مع قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ولم يجعل الله ذلك نقصًا لصبره ... فالمنافي للصبر شكوى الله لا الشكوى إليه سبحانه، فإنه يبتلي عبده ليسمع تضرعه ودعاءه وشكواه إليه، ولا يحب التجلد عليه، وأحبُ ما إليه انكسارُ قلبِ عبده بين يديه، وتذلُّلُه له، وإظهارُ ضعفِه، وفاقته وعجزه وقلة صبره، فاحذر كل الحذر من إظهار التجلد عليه، وعليك بالتضرع والتمسكن، وإبداء العجز والفاقة، والذل والضعف، فرحمته أقرب إلى هذا القلب من اليد للفم[1].

(١) انظر الروح لابن القيم (٢/ ٧٢١- ٧٢٣).

المبحث الثالث

حال المؤمن فيما يقابل به الضر وعاقبتها الحسنة

المطلب الأول: الصبر والتسليم واحتساب الأجر على الله تعالى:

إنَّ حقَ الله تعالى تجاه أقداره المؤلمة الصبرُ عليها، وعدم الشكوى والتسخط، فكما يجب على العبد الصبرُ على فعل المأمور وترك المحظور، يجب عليه كذلك الصبرُ على ألم المقدور؛ فالصبر متعلق بمقامات الدين كلها، وهذا ما اشتملت عليه وصية لقمان لابنه في قوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧]، فجعل سبحانه الصبر على المصائب من عزم الأمور، وإنما يُعزم من الأمور على أجلِّها وأشرفها، وكذلك جمع سبحانه هذه الأصول الثلاثة المتعلقة بمقامات الدين كلها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ. ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ. وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ. وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد:١٩– ٢٢]، فجمع لهم سبحانه مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف، ثم جمع لهم ذلك كله في أصل واحد، هو أصل ذلك وقاعدته، ومداره الذى يدور عليه، وهو الصبر فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ ﴾ فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصًا لوجهه، ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر، وهي الصلاة فقال: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة؛ وهما الصبر والصلاة؛ كما قال تعالى:﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥][(١)].

والله ﷻ يبتلي صبرَ العباد وشكرَهم بالضراء والسراء والجميع يحتاج إلى الصبر،

(١) انظر: عدة الصابرين ص (٥٥– ٥٩).

لكن الابتلاء بالنعم أعظم الابتلاءين، والصبر على الطاعة أشق الصبرين، كما قال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر»[(١)]. والابتلاء بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسبابها وأذى الخلق قد يكون نعمةً هي أعظم النعمتين، وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر على أضدادها، فالرب ﷻ يبتلي بنعمه وينعم بابتلائه، غير أن الصبر والشكر حالتان لازمتان للعبد في أمر الرب ونهيه وقضائه وقدره، لا يستغني عنهما طرفة عين، والجميع لا يؤدّى إلا بصبر وشكر، لكن شكر ما يُقَدَّرُ على العبد من المصائب يندرج في الصبر عليه، كما يندرج صبر الشاكر في شكره[(٢)].

إن مما يلزم المؤمن أن يتعبد اللهَ تعالى به حالَ الضراءِ الرضا والتسليمُ وعدمُ التسخط؛ حتى يصيرَ الضرُّ خيرًا، فإن من تأمل ما جاء في القرآن الكريم من العواقب الحميدة في الدنيا والآخرة التي يجنيها الصابرُ على ما مسه من ضر لوجدَ فيها أعظم محفزٍ ودافعٍ على الصبر على أقدار الله المؤلمة؛ فالصبر على ذلك استجابة لأمر الله وطاعة له، وكفى بذلك فضلًا ونبلًا وتقربًا لله وحبًّا، وهو عنوان التسليم لأمر الله، والرضا بقدره، والاطمئنان به، وهذا من صميم توحيد الله تعالى، فإن قدر الله ﷻ نافذ لا محالة، لا يدفعه جزع ولا تسخّط، وإنما يذهب بذلك الأجر والثواب، قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ. ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]، فالاختبار والامتحان بالأقدار المؤلمة كائن ولا بد؛ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١]، وليس له تَرياق إلا الصبر ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٣٠)، (٤/ ٥٥٣- ٥٥٤)، برقم (٢٤٦٤) وحسَّنَه.

(٢) انظر: عدة الصابرين ص (٢٥٣- ٢٥٤).

﴿مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، فالبشارة من الله للصابرين الذين يتذكرون عند المصيبة أنهم عبيد لله يتصرف فيهم كيفما شاء، وأنهم راجعون إليه، ومحاسبون على صبرهم واستسلامهم وتسليمهم لأوامر سيدهم ومالكهم الشرعية والقدرية، وأنه لا يضيع لديه مثْقالُ ذرَّةٍ من صبرهم، فالصبر على الضراء مبادرة إلى نيل تلك البشارة من الرب الكريم، والتي تحمل في طياتها عظيمَ المسرات، فبصبرهم يحظون بعظيم المثوبة والأجر عنده تعالى بغير مكيال ولا ميزان، قال تعالى:﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]، وتأمل كيف أشاد الرب سبحانه وتعالى بالصابرين ونوّه بذكرهم، وأشار إليهم إشارة إكبار وتعظيم؛ تكريما لصبرهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾، فهم أهل الهداية الذين تحققت لهم الرحمة من الله والأَمَنَةُ من عذابه وكافأهم بالذكر والثناء الحسن في العاجل والآجل على صبرهم(١).

وهذا شأن الأخيار والصالحين عند نزول الضراء؛ الصبر والاحتساب والتسليم لله تعالى؛ فها هم أئمةُ البشر وأسوتُهم أنبياء الله -صلوات الله وسلامه عليهم- نالهم من أقوامهم ألوان الضر، فقابلوا ذلك بالتوكل على الله، والاستسلام لقدره، والصبر واحتساب الأجر والمثوبة منه سبحانه؛ حيث أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم:١٢] ، فقابلوا سوءَ مقالِ قومهم وقبحَ فعالهم بالصبر والاحتساب.

فالابتلاء بالضراء في الأموال والأنفس سُنّة ماضية، لم تخلُ منها أمةٌ من الأمم، وهذا هو الطريق إلى الجنة؛ فإنها حفت بالمكاره، كما حفت النار بالشهوات(٢)، قال

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢١- ٢٤).

(٢) لما في الصحيح من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات**»، انظر: صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٤/ ٢١٧٤) برقم (٢٨٢٢).

تعالى:﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، فلا بد أن يُهيِّئ المسلمون أنفسهم للصبر والتحمل، جماعاتٍ وأفرادًا؛ ليتمحص الذين هم أهل للصبرِ وتحملِ أعباء الدعوة إلى دين الله والتضحية في سبيلها بكل غالٍ ونفيس من غيرهم، فأعداءُ هذا الدين ماضون في الكيد له، وإيذاء أهله، وإلحاق الضر بهم لا يفترون، تتلوَّنُ وسائلهم، وتختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، لابسين لكل زمان لباسه، لكن يظل هذا الكتاب المحكم يقرر لأهل الإيمان قاعدةً في النصر والظفر؛ بها يَبْطُلُ كلُ كيدٍ ومكرٍ، وبها يسير أهل الإيمان إلى غايتهم في عزمٍ أكيد؛ إنها قاعدةُ الصبر والتقوى ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[1] وإلا فإن كيد العدو لانهاية له؛ فإن استطاعوا إلحاق الضرر أو سنحت لهم فرصة فإنهم لا يفتؤون، وإلا انشحنت قلوبهم ترحًا على خير يمسّ المسلمين، وفرحًا بضرٍ يصيبهم، قال تعالى:﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[آل عمران:١٢٠]، فالدواء هو هو؛ الصبر والتقوى، وسيأتي بحول الله وقوته في نهاية هذا البحث نماذجُ لهؤلاء الصابرين، الذين قابلوا ما مسّهم من ألوان الضر بالصبر والاحتساب، واليقين والتقوى.

ولقد أخبر الحق -سبحانه وتعالى- أن الإنسان متّصف بالأوصاف الذميمة حال الضر وحال الخير، فإذا أصابته شدة بعد نعمة، يئس من استقبال الخير، وجحد ماضيه، كأنه لم ير خيرًا، ولم يرجُ بعد ذلك فرجًا، وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة أمِن مكر الله، وقال: لن ينالني بعد هذا سوءٌ، فرِحًا بما في يده، فخورًا به على غيره، قال تعالى:﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ.

(١) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٥٣٣- ٥٣٤).

وَلَـٰٓئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ. إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [هود: ٩-١١]، لم يستثن الله سبحانه وتعالى من هذا الوصف الذميم إلا من اتصف بالصبر عند الشدائد والمكاره، والعمل الصالح عند السعة والرخاء ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾، أي: بما يصيبهم من الضراء، ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء، كما في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ، وَلاَ حُزْنٍ، وَلاَ أَذًى، وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»(١)، وفي صحيح مسلم من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(٢)، وهكذا قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ. إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ. إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر:١-٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا. إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ – ٢٢].(٣)

وما كتب الله التمكين لأنبيائه ورسله وأتباعهم إلا بالصبر والتسليم واليقين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض (٧/ ١١٤) برقم (٥٦٤١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير(٤/ ٢٢٩٥) برقم(٢٩٩٩).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٧).

المطلب الثاني: عواقب الصبر على الضراء، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: زيادة الإيمان واليقين وراحة البال وطمأنينة النفس:

إن السعادة في هذه الحياة مطلب يسعى إليه كل كائن حي خلقه الله ﷻ؛ مستثمرًا ما وهبه الله تعالى من قوى لتحقيق هذا المطلب، وإنْ تفاوتت أفهام هذه المخلوقات في معنى السعادة، وفي الوسائل الجالبة لها، ولقد كرّم الله الإنسان من بين هذه المخلوقات بالعقل الذي يدرك به الكثير من جوانب السعادة وأسبابها، لكن العقلَ يظل قاصرًا عن إدراك حقيقتها، ومراتب الكمال فيها، وحقيقية الأسباب الجالبة لها، إلا إذا انْضَمَّ إليه الشرع فعمل العبد بوحي الله ونوره، وتوخّى السعادة على هدي كتابه، ثم إنَّ الناسَ يتفاوتون في ذلك بحسب قربهم وبعدهم من واهب السعادة ﷻ الذي قضى وحكم أن تكون السعادة منوطةً بالصبر على طاعته، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة التي تضر الإنسان في نفسه أو أهله أو ماله، والتي لا سبيل إلى دفعِها، وتخطي أكدارِها المُرَّة ولمِّ ما يصاحبُها من شَعَثِ القلب إلا بالصبر والاحتساب الذي يُصَيِّرُ علقمها الممجوج شهدًا زلالًا، وتفريقَها للقلوبِ اجتماعًا وطمأنينةً وراحةَ بالٍ واستقرارًا وسعادةً لا نظير لها في هذه الحياة، تنعكس على سلوك صاحبها قولًا وفعلًا واعتقادًا؛ لأنه يعلم أن من قدَّرَ عليه تلك الأكدار والمنغصات سيجزيه ثواب ذلك الصبر بلا كيلٍ ولا وزنٍ، ولعمر الله إنها لمرتبة لا ينالها إلا ذو حظٍ عظيم؛ كما أخبر الحق سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ . وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٣ - ٣٥]، فلا أحدَ أحسنَ مقالًا ممن أسلم وجهه لله، ووحده ودعا الناس إلى ذلك، ودفع مساوئ أخلاقهم وما يلقاه من أضرارهم بأحسن الأقوال والأفعال، فإن ذلك أدعى لاستلال سخيمة قلوبهم؛ فالآية دعوة إلى

مكارمِ الأخلاق، والصبرِ والحلمِ والصفح والعفو، وهذه بدورها سببٌ للعصمة من شياطين الجن، وسببٌ لخضوع شياطين الإنس؛ حتى كأنَّ أحدَهم صديقٌ حميمٌ مخلصُ الحب لمن كان يعاديه، يفيض قلبه له بالعطاء والإحسان؛ لما يحمل من حرارة الحب تجاه من يواليه، لكن: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ ، أي: هذه الخصلة الشريفة، والفضيلة العظيمة؛ وهي مقابلة الإساءة بالإحسان: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾، أي: على تجرع الشدائد وأضرارها، وعلى طاعته تعالى وأمْرِه، وتخلقوا بالحلم والعفو: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: من الخير وكمال النفس، وسمو الأخلاق، ورجاحة العقل، وعظيم الثواب عند الله تعالى، فالصبر جامع لخلال الخير كلها[(١)].

وإن المؤمن عندما يدرك اتصاف الرب سبحانه وتعالى بالصبر[(٢)] ينبغي أن يعلم أن من مقتضيات ذلك ولوازمه أن يصبر العبد ويتصبر ويصابر، كيف وقد أمر الله بذلك؟ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فأمر سبحانه العبد بالصبر على ما يخصه والمصابرة على الأعداء، والمداومة على الصبر حتى يتخذه إلفًا وصاحبًا وخلًّا ومؤانسًا؛ لما يترتب عليه من كمال الإيمان وطمأنينة النفس وراحة البال، فهو واجب بإجماع الأمة، فالصبر نصف الإيمان. فإن الإيمان: نصف صبر، ونصف شكر، وقد جاء ذكره في القرآن في نحو تسعين موضعًا، مقرونًا بأحوالٍ عديدةٍ من عواقبه الحميدة، منها:

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٥/ ١٥- ١٦)، ومحاسن التأويل (١٤/ ٥٢٠٥- ٥٢٠٨) .

(٢) يدل على ذلك ما في الصحيحين من حديث عن أبي موسى الأشعري ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أحد أصبر على أذىً يسمعه من الله ﷻ، إنه يُشرَكُ به، ويُجعَلُ له الولدُ، ثم هو يعافيهم ويرزقهم**».

انظر: صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الأدب، باب الصبر في الأذى (١٠/ ٥١١) برقم (٦٠٩٩)، وصحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لا أحد أصبر على أذى من الله ﷻ (٤/ ٢١٦٠) برقم (٢٨٠٤)، واللفظ له.

* أنه يوجب معية الله لأصحابه، وهي معية خاصة تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأييدهم، قال تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣] قال تعالى:﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

* أنه يوجب محبة الله لأصحابه، قال تعالى:﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

* أنه خير لأصحابه. قال تعالى:﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[النحل: ١٢٦] قال تعالى:﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

* أن الله تعالى أطلق البشرى لأهله، مما يدل على عِظمِ المبَشَّرِ به . قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

* أن الله تعالى ضمن النصر والمدد لأهله. قال تعالى:﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال له: «**واعلم أن النصر مع الصبر**»(١).

* أن الصبر يورث صاحبه درجة الإمامة في الدين. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤](٢).

* وقد أخبر ﷺ أنه خيرُ عطاءٍ للعبد، فقال: «**وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»(٣).

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة (١/ ١٣٨- ١٣٩)البيهقي في شعب الإيمان، باب في الصبر على المصائب (٧/ ٢٠٣)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٤١) وصححه الألباني في ظلال الجنة برقم (٣١٦- ٣١٨).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٥٨- ١٦١).

(٣) متفق عليه من حديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

المسألة الثانية: رفعة المنزلة في الآخرة وبلوغ الدرجات العلا:

إن دفع مساوئ أخلاق الناس بالحسنى والصبرَ على ضرهم يؤول بأهله إلى الفوز العظيم، كما قال سبحانه مُبَكِّتًا أهل النار على سخريتهم بعبادِه الأخيار: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨-١١١]، فجازاهم بصبرهم بأنهم هم الفائزون المفلحون في ذلك اليوم، ولا شك أن ما يصحب ذلك الفوز من نعيم لا عِدْلَ له، قال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ – ٥٩]، لكن ذلك الجزاءَ منوطٌ بالصبر مع التوكل على الله، بل إن الله سبحانه وتعالى يُفِيضُ عليهم من واسع جوده وكرمه فيجزيهم أجرهم على صبرهم بأحسن ما كانوا يعملون، قال تعالى:﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦]، ويجوز أن تكونَ أَفْعَل هنا على بابِها من التفضيل، والمعنى: وليثيبنّ الله الذين صبروا في السّراء والضرّاء، بأحسن ما كانوا يعملُون من الأعمال دون أسوئها، فإنه يغفرها ويتجاوز عنها بفضله ما لم تكن كبيرة[(١)].

ويجوز أن يكون المعنى: ولنجزينهم بسبب صبرهم بجزاءٍ أشرف وأوفر من عملهم؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا[(٢)]،﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى

انظر: صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة (٣/ ٣٣٥) برقم (١٤٦٩)، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر (٢/ ٧٢٩) برقم (١٠٥٣).

(١) انظر: تفسير الطبري، (٧/ ١٦٩- ١٧٠)، والدر المصون (٧/ ٢٨٤).

(٢) انظر: تفسير الشوكاني (٣/ ١٩٦)، والسعدي (٣/ ٩٥).

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٤١-٤٢]، فاستحقوا بذلك العاقبة الحسنة على صبرهم الذي قصدوا به وجه ربهم، وامتثلوا أوامره التي تعينهم على تحقيق ذلك الصبر، وتخلقوا بأحسن الأخلاق، فدفعوا ضر الناس وسيئاتهم بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

فمناط نجاح العمل، وحجم الثواب المترتب عليه هو تقوى الله مع حسن الاستجابة لأمره، والصبر على عقباته ومشاقة، وإلا حبط العمل، وضاع الأجر.

ومما يقوى العزائم نحو هذا وجودُ نماذج يُحتذى بها، من الذين أشاد الله بذكرهم، وأثنى على صبرهم على ما نالهم من ضرٍ في سبيل ذلك، وقد نال أصحاب النبي ﷺ النصيب الأوفر من ذلك، وضربوا أروع الأمثلة، فها هم يوم أحد وقد نالهم من الجراح ما نالهم صبروا واستجابوا، غير متباطين لأمر الله ورسوله في ملاحقة المشركين، لّما ندبهم رسول الله ﷺ لذلك؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٤][(١)].

ولقد رتب الله عظيم الأجر والثواب لأهل الكتاب الذين آمنوا بما أنزل إليهم وما أنزل إلينا على صبرهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا

(١) انظر: تفسير الألوسي (٢/ ٣٣٨- ٣٤٠)، والسيرة لابن هشام (٣/ ١٢٨).

نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[القصص:٥١-٥٥]، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الذين آمنوا بالكتابين ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ أجرًا على الإيمان الأول، وأجرًا على الإيمان الثاني، ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ على الإيمان، وثبتوا على العمل، فلم تزعزعهم، ولم تثنهم عن الإيمان رياسةٌ ولا شهوةٌ[(١)].

وفي التعبير عنهم باسم الإشارة تنبيهٌ على أنهم جديرون بما سيذكر بعد من جميل الأوصاف؛ حيث عدَّ اللهُ سبحانه لهم سبعًا من خصال أهل الكمال:

الخصلة الأولى: أُخروية، وهي أنهم يؤتون أجرين على إيمانهم، أي: يضاعف لهم الثواب لأجل أنهم آمنوا بكتابهم من قبل، ثم آمنوا بالقرآن؛ وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « **ثَلاَثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى وَحَقَّ سَيِّدِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَغَذَاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا ثُمَّ أَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ**»[(٢)].

والخصلة الثانية: الصبر، وهو من أعظم خصال البر وأجمعها للمبرّات، وأعونها على الزيادة منها، والمراد: صبرهم على أذى الناس من أهل ملتهم ومن كفار قريش.

والخصلة الثالثة: دفعهم السيئة بالحسنة، وهي من أعظم خصال الخير، وأدعاها إلى حسن المعاشرة؛ فيحصل بذلك دفع مضرة المسيء، وإسداء الخير له، فأعرضوا عن جهل غيرهم وقابلوه بالحسنى.

والخصلة الرابعة: الإنفاق على الفقراء والمحتاجين، ولا يخفى مكانته من البر، وما فيه من كسب القلوب.

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٤/ ٣١).

(٢) انظر:صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم من أهل الكتابين (٦/ ١٤٥، ١٤٦) برقم (٣٠١١)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب إيمان أهل الكتاب برسالة الإسلام، (١/ ١٣٤) برقم (١٥٤).

والخصلة الخامسة: الإعراض عن اللغو -وهو عبث الكلام الذي لا فائدة فيه- فلا يصدر منهم ما لا نفع فيه، وهذا الخلق من مظاهر الحكمة، إذ لا ينبغي للعاقل أن يشغل سمعه ولُبّه بما لا جدوى له، والأَولى أن يتنزه عن صدور ذلك منه.

والخصلة السادسة: المفاصلة مع أهل الجهل ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ والمقصود سلام المتاركة والموادعة، أي: لن نعود لمخاطبتكم، وهذا من أحسن ما يجاب به السفهاء، وهو أقرب لإصلاحهم، وأسلم من تزايد سفههم. قال الحسن: كلمة السلام عليكم، تحية بين المؤمنين، وعلامة لاحتمال أذى الجاهلين.

الخصلة السابعة: ما أفصح عنه قولهم: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ من كريم أخلاقهم وذلك أنهم إنما يطلبون العلم ومعالي الأخلاق. والجملة تعليل للمتاركة، أي لأنا لا نحب مخالطة أهل الجهالة[1].

وأخبر سبحانه في آيات أخر عما جازى به أهل الصبر، قال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ١٣ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ١٤ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ١٥ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ١٦ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ١٧ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ١٨ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ١٩ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ٢٠ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١٢ – ٢٢] فأخبر سبحانه أنه جازاهم برغد العيش ورفاهية الحياة، وطيب المساكن والملابس، والمقيل والظلال، ودنو الثمار للقطف، وحسن الأواني والأكواب التي يأكلون ويشربون فيها، والتي هُيِّئت على قدر حاجتهم، مع الارتياح في الجلوس والاتكاء على أجمل الأرائك والوسائد والسرر، مع الخدم المخلدون والذين هم في جمالهم كأنهم لؤلؤ

(١) انظر: تفسير ابن عاشور (٢٠/ ١٤٤- ١٤٦).

مكنون، فكيف بمن يخدمونه، وأنهم يطوفون عليهم بلذيذ الشراب الممزوج بالزنجبيل، كلما أجال أحدهم نظره هنا أو هناك رأى ما هو أكبر من نعيم الجنة وعظيم فضل الله؛ جزاءً على صبرهم؛ وشكرًا على سعيهم، وهم بالقرب من ربهم، اللهم فاجمعنا بهم بعفوك ورحمتك.

المبحث الرابع

نماذج من أحوال الأنبياء، والصالحين عند الضراء

المطلب الأول: نبي الله إبراهيم وابنه نبي الله إسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ:

لقد آتى الله خليله إبراهيم عليه السلام من الرشد والحكمة ما كان كفيلًا بحمل قومه على الإيمان ولكن: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣، الزمر: ٢٣، ٣٦، غافر: ٣٣]، وبرهن لهم على فساد آلهتهم بالدليل الشرعي والعقلي والحسي؛ حتى نكّسوا رؤوسهم خجلًا، ورجعوا إلى أنفسهم بالملامة؛ إذ أقام عليهم من الحجة ما دحض حُجَّتَهم، وأظهرَ عجزَهم، وأبانَ الحقَ، ودفع الباطل؛ فلم يكن منهم إلا أن قابلوا ذلك بألوان التهديد والأذى وصنوف العذاب، حيث سلكوا مسلك الطغاة؛ فعدلوا إلى استعمال البطش والقوة، وترقّوا معه في ذلك حتى بلغوا من العذاب غايته؛ فـ ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فردّ الله كيدهم في نحورهم، وجعل النار على خليله بردًا وسلامًا، ودفع عنه حرها وضرها، وهو صابر محتسب الأجر على الله وحده، محسن الظن بربه، فلم يطلب العون من سواه، وإنما قال عليه السلام: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»[(١)]، أي: هو كافيني وحده وحافظي، وهو الذي أَكِلُ إليه أمري وأعتمد عليه وحده دونما سواه؛ فَأَثَّرَتْ تلك الْكَلِمَةُ أَثَرَهَا، وَاقْتَضَتْ مُوجَبَهَا، فأتاه المدد من الله فورًا: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ . وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩-٧٠]، وكانوا قد جمعوا حطبًا كثيرًا جدًا، ثم جعلوه في جَوْبة من الأرض، وأضرموها نارًا، فكان لها شرر عظيم، ولهب مرتفع، لم

(١) رواه البخاري في صحيحه - مع الفتح - كتاب التفسير، سورة آل عمران، باب: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، (٨/ ٢٢٩) برقم (٤٥٦٣)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. وفي لفظ (٥٤٦٤) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ».

توقد قط نارٌ مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام، في كفة المنجنيق؛ ليرموه عن بعد؛ لشدة وهج النار، لا يستطيعون الدنو منها، فلما ألقوه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل»، قال كعب الأحبار: لم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه، ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴾أي: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بنبي الله كيدًا، فكادهم الله ونجاه من النار(١).

وما ذاك إلا ثمرة من ثمار صبره في ذات الله، وتفويض أمره إليه على الضر الذي ناله من قومه، فكانت له العاقبة العليا ولهم السفلى؛ ﴿ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ. فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٩٧– ٩٨]، ولهذا جعله الله للناس إمامًا، فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران، وسَخَا بولده للقربان، وجعل ماله للضيفان، ولذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان(٢).

وليس هذا هو الابتلاء الأوحد الذي نجح فيه خليل الرحمن عليه السلام، بل هناك بلاء لا يقل عنه في ألمه، وما يعتري القلب بسببه من ضر؛ ألا وهو الأمر الإلهي له بذبح ولده! متى؟ وكيف كان ذلك؟

لما أقام على قومه الحجة، وأعذر منهم، ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ. رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ. فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٩٩ - ١٠١]، ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أي: مهاجر إليه، قاصد أرض الشام المباركة؛ ليدلّني ربي إلى ما فيه الخير لي، من أمر ديني ودنياي، فعل ذلك لما يئس من قومه، ولم ير فيهم خيرًا، ودعا اللهّ أن يهب له غلامًا صالحًا، ينفعه اللهّ به في حياته، وبعد مماته، فاستجاب اللهّ له ورزقه إسماعيلَ عليه السلام بلا شك، فإنه ذكر بعده البشارة بإسحاق، ولأن اللهّ تعالى قال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود:٧١]، فدل على أن إسحاق غير

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٣٤٠– ٣٤١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٥٤– ٥٥).

الذبيح، ووصف اللهّ إسماعيل عليه السلام بالحلم، وهو يتضمن الصبر، وحسن الخلق، وسعة الصدر والعفو عمن جنى[1].

لقد رزقه الله الولد وهو أحوج ما يكون إليه، وحيدًا قد كبرت سنه، واحتاج إلى من يسعى عليه، فناله من السرور والاغتباط بهذه البشارة ما الله به عليم، ولذا أحب هذا الولد أشدَّ ما يحب الأب ولده؛ خصوصًا بعد أن أدرك هذا الولد الحدَّ الذي يقدر فيه على السعي مع أبيه في أشغاله وحوائجه، وهو السن الذي يعظم فيه تعلق القلب بالابن غالبًا؛ حيث ذهبت مشقته، وأقبلت منفعته، لكن ماذا وراء حجب الغيب؟ قال تعالى:﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات:١٠٢] أي: قال إبراهيم عليه السلام لهذا الابن الوحيد الذي رزقه الله به على كبر: قد رأيت في النوم أن اللهّ يأمرني بذبحك، ورؤيا الأنبياء وحي ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ فإن أمر اللهّ تعالى لا بد من تنفيذه، قال إسماعيل عليه السلام صابرًا محتسبًا، مرضيًّا لربه، وبارًّا بوالده: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ أي: امضِ لما أمرك اللهّ ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أخبر أباه أنه موطِّنٌ نفسَه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة اللهّ تعالى؛ لأنه لا يكون شيء بدون مشيئته ﷻ، وعلى غضاضة سنه عليه السلام، كان فيه من رصانة الحلم والعقل وقوة الصبر واليقين ما جسَّره على احتمال تلك البلية العظيمة، والإجابة بذلك الجواب الحكيم، ولم يشاوره أبوه ليُعمل رأيه ومشورته، لأن الأمر حتم من اللهّ، ولكن ليعلمَ ما عنده فيما نزل به من بلاء اللهّ، فيثبِّتَ قدمَه، ويصبِّرَه إن جزع، ويأمنَ عليه الزلل إن صبر وسلم، وليوطن نفسه، ويهون عليها تلقى البلاء، وهو كالمستأنس به، ويكتسبَ المثوبة بالانقياد للأمر، وليكونَ سنة في المشاورة[2]،﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ وَنَٰدَيۡنَٰهُ

(١) انظر: تفسير السعدي (٤/ ٢٨٣).

(٢) انظر: تفسير السعدي (٤/ ٢٨٣- ٢٨٤)، وتفسير الزمخشري (٣/ ٣٤٧- ٣٤٨).

أَن يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ . قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ. إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الصافات: ١٠٣ – ١٠٦]، أي: فلما استسلما عليهما السلام وانقادا وخضعا لأمر الله، جازمًا الأبُ بقتل ابنه وثمرة فؤاده، امتثالًا لأمر ربه، وخوفًا من عقابه، والابنُ قد وطَّن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه، ورضا والده، ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي: أضجع الأب ولده على جبينه ليذبحه ﴿وَنَـٰدَيۡنَـٰهُ﴾ في تلك الحال المزعجة، والأمر المدهش:﴿أَن يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ أي: قد فعلت ما أمرت به، فإنك وطَّنت نفسك على ذلك، وفعلت كل سبب، ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقه ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في عبادتنا، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: هذا الذي امتحنا به إبراهيمَ عليه السلام هو البلاء الواضح، الذي تبيّن به صفاء إبراهيم، وكمال محبته لربه وخُلّته، فإن إسماعيل عليه السلام لما وهبه اللهّ لإبراهيم، أحبه حبًّا شديدًا، وهو خليل الرحمن، والخلة أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة، ويقتضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحبوب، فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه بابنه إسماعيل، أراد تعالى أن يصفي وُدَّه ويختبر خلته، فأمره أن يذبح من زاحم حبُّه حبَّ ربِه، فلما قدّم حب اللهّ، وآثره على هواه، وعزم على ذبحه، وزال ما في القلب من المزاحمة، بقي الذبح لا فائدة فيه، فلهذا قال تعالى:﴿ وَفَدَيۡنَـٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ . وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ . سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ . كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ . إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٧–١١١].

﴿ وَفَدَيۡنَـٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ ﴾ أي: صار بدله ذبحٌ من الغنم عظيم، ذبحه إبراهيم، فكان عظيمًا من جهة أنه كان فداء لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قربانًا وسنة إلى يوم القيامة،﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ . سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ أي: وأبقينا عليه ثناءً صادقًا في الآخرين، كما كان في الأولين، فكل وقت بعد إبراهيم عليه السلام، فإنه فيه محبوب معظم مثني عليه، ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في عبادة اللهّ،

ومعاملة خلقه، أن نفرج عنهم الشدائد، ونجعل لهم العاقبة، والثناء الحسن. وهو تعليل لما خوّلهما من الفرج بعد الشدّة ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بما أمر الله بالإيمان به، الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾[الأنعام: ٧٥] (١) .

فصبر الخليل وابنه عليهما السلام على ما نزل بهما من ضر؛ ليكونا أنموذجًا وأسوةً وقدوةً للصابرين بعدهم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الممتحنة:٦].

المطلب الثاني: نبي الله أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

من الذين أشاد الله بذكرهم، وامتدح صنيعهم، وجعلهم مضربًا للمثل بين الخليقة في حسنِ تعاملهم مع الضراء، وأسوةً في الصبر والتحمل عند نزول البلاء، فأعقبه على ذلك أن كشف ضره وأعظم أجره وأسبغ عليه فضله، نبيُّ الله أيوبُ عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ . فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤] . والضُرّ- بضم الضاد- ما يتضرر به المرء في جسده من مرض أو هزال، أو في ماله من نقص ونحوه.

ومن عظيم أدب نبي الله أيوب عليه السلام مع ربه مسلكه في الدعاء بكشف ما حلَّ به من ضره؛ حيث عبّر عن ذلك بالمس وهو: الإصابة الخفيفة عند أول الشعور بالتعب(٢)، فجعل ما حل به من الضر كالمسّ الخفيف؛ تأدبًا في دعائه مع الله، وانتصب ﴿رَحْمَةً ﴾ على المفعول لأجله. ووصفت الرحمة بأنها من عند الله؛ تنويهًا بشأنها، وتعظيمًا لها بذكر العندية الدالة على فضل أيوب، وقربه من ربه ﴿وَذِكْرَىٰ

(١) انظر: تفسير السعدي (٤/ ٣٨٤- ٣٨٥)، وتفسير الزمخشري (٣/ ٣٤٨- ٣٤٩).

(٢) انظر: لسان العرب مادة (م س س) .

لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ أي: تذكيرًا وتنبيهًا للعابدين بأن الله لا يترك عنايته بهم [(١)].

وقد دلَّ القرآن على أن الله تعالى ابتلى نبيه وعبده أيوب عليه السلام بعظيم البلاء؛ امتحانًا واختبارًا لصبره عليه السلام، ورحمةً به لرفع درجته ومنزلته، لا لهوانه على ربه سبحانه، فقابل نبي الله أيوب عليه السلام عظيم البلاء الذي حلَّ به بعظيم الصبر والثبات واحتساب الأجر على الله تعالى، ولم يزد هذا كلُه نبيَ الله أيوبَ عليه السلام إلا صبرًا واحتسابًا وحمدًا وشكرًا؛ حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام على ما حصل له من أنواع البلايا. وقد ثبت في الصحيح أن رسول ﷺ قال: «**أشد الناس بلاء الانبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى العبد على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا، اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة، ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد، حتى يتركه يمشي على الأرض، وما عليه من خطيئة**»[(٢)].

وقد جاء في كتب الآثار، من التفاسير وغيرها الكثيرُ من الروايات التي تبين نوع البلاء الذي أصابه، ومدته، وكيف صبر أيوب على ذلك، وغالبها من الإسرائيليات، التي يقدح بعضها في مقام النبوة، وكفى بالقرآن واعظًا!.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ . ٱرْكُضْ

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٧/ ١٢٦- ١٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء (٤/ ٥٢٠) برقم (٢٣٩٨)، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء (٢/ ١٣٣٤) برقم (٤٠٢٣)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب الطب، باب أي الناس أشد بلاء (٧/ ٤٦- ٤٧) برقم (٧٤٣٩) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. ويشهد له ما في الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك، فقلت: يا رسول الله، إنك لتوعك وعكًا شديدًا؟ قال: «**أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم**» قلت: ذلك أن لك أجرين؟ قال: «**أجل، ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها، إلا كفر الله بها سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها**».

انظر: صحيح البخاري مع الفتح، كتاب المرضى، باب أسد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل(١٠/ ١١١) برقم (٥٦٤٨)، وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها (٤/ ١٩٩١) برقم (٢٥٧١).

بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ .وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ . وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤١-٤٤]

لَمَّا طال المرضُ بنبي الله أيوب عليه السلام، واشتَدَّ الحالُ، وانتهى القَدَر المقدور، وأراد الله شفاءَه، تَضَرَّعَ إِلَى رَبِّه: ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣] وَحكى الله عنه هنا أنه ﴿ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ ، قِيلَ: بِنُصْبٍ فِي بَدَنِي، وَعَذَابٍ فِي مَالِي وَوَلَدِي. فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَجَابَ لَهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَقَامِهِ، ويَرْكُضَ الْأَرْضَ بِرِجْلِهِ، فَفَعَلَ؛ فَأَنْبَعَ اللهُ له عينًا باردة الماء، وأمره أن يغتسل منها ويشرب، فأذهب الله عنه ما كان يجده من أذى، في جسده ظاهرًا وباطنًا، وأبدله صحة ظاهرة وباطنة، وجمالًا تامًّا ومالًا كثيرًا؛ حتى أمطره جرادًا من ذهب[(١)]؛ ففي صحيح البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، أَنَّ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «**بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ**[(٢)]، **فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى، قَالَ بَلَى يَا رَبِّ، وَلَكِنْ لاَ غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ**»[(٣)].

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾، رد الله عليه ماله وولده بأعيانهم، ومثلهم معهم، كما قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما ، والحسن وقتادة رحمهما الله، وقيل آجره فيمن سلف، وعوضه في الدنيا غيرهم وسيجمع له شمله بهم جميعا في الآخرة[(٤)].

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: كشفنا ما به من ضر؛ رحمةً منا به، ورأفةً وإحسانًا؛ لجميل صبره على البلاء، وحسن شكره في الرخاء ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: تذكرة لمن

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٤٢٩- ٤٣٠).

(٢) وقوله: «رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ» أي: جماعة من جَرَاد . انظر: فتح الباري (٦/ ٤٢٠).

(٣) انظر: صحيح البخاري مع الفتح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (٦/ ٤٢٠) برقم (٣٣٩١).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٧٢- ٧٣)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٣٥٢).

ابتلى في جسده أو ماله أو ولده، من ذَوِي الْعُقُولِ لِيَعْلَمُوا أَنَّ عاقبةَ الصَّبْرِ الفرجُ، ولهم أسوة في نبي الله أيوب عليه السلام؛ حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك، فصبر واحتسب؛ حتى فرج الله عنه. وقوله: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام، فيما كان من حَلِفِهِ ليضربنَّ امرأتَه مئةَ سوطٍ؛ لأمر فعلته لا يرضاه.

فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضِغثًا -وهو عثكال النخل الذى يجمع الشماريخ- فيجمعها كلها ويضربها به ضربةً واحدةً، ويكون هذا منزَّلًا منزلةَ الضرب بمائة سوط، ويبرُّ بيمينه ولا يحنث.

وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه، ولا سيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة، البارة الراشدة، رضى الله عنها. ولهذا عقَّبَ الله الرخصةَ وعلَّلَها بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[(١)]. فخرجت هذه الجملة مخرج التعليل، فعلم أن الله تعالى إنما أفتاه بهذه الفتيا جزاءً له على صبره، وحفظًا ليمينه من الحنث، وتخفيفًا على امرأته ورحمة بها[(٢)].

فامتدح الله عبده أيوب عليه السلام وأثنى عليه بأنه: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ لأنه وجده عند مسِّ الضر والبلوى صابرًا محتسبًا، ويفهم من الآية ذمُّ من لم يصبر عند البلوى، وأنه بئس العبد[(٣)].

المطلب الثالث: نبي الله يعقوب وابنه نبي الله يوسف عليهما السلام:

تتنوع البلوى والضراء التي يمحِّص الله بها أنبياءَه وأولياءَه، ولا تجد منهم تجاه ذلك كله إلا الصبر والثبات واحتساب الأجر عند خلَّاق البريات؛ لأنهم ينهلون من معين واحد، وهو وحي السماء الذي تربوا على تعاليمه وامتثلوها، كما أمرهم سيدهم وخالقهم؛ ولذا لم تختلف أفعالهم فيما يقابلون به الضراء، لكن القاسم المشترك هو

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ص (٢٤١).
(٢) انظر: إعلام الموقعين (٣/ ٢٢٢).
(٣) انظر: عدة الصابرين ص (١١٩) .

القيام بتعاليم الرب سبحانه وتعالى كما أمر- وإن تفاوتوا في تحقيق ذلك- فلا تزيدهم الضراءُ إلا صبراً، ولا السراءُ إلا شكراً.

وهذان نبيّان من أنبياء الله عليهما السلام -وهما يعقوب وابنه يوسف عليهما السلام- وصفهما النبي ﷺ بالكرم فقال في يوسف عليه السلام: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم**»[(١)]، يبتليان بلونٍ من ألوان الضر؛ هو ظلم قرابتهما، ولله در طرفة بن العبد [(٢)] حين قال:

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً على المرءِ من وَقْعِ الحُسامِ المُهنّد[(٣)]

أما يوسف فكاد له إخوته كيدًا كُبَّارًا، وحسدوه على محبة أبيه له ولشقيقه بنيامين أكثر منهم، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ . إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٧ – ٨]، فكانوا يرون أنهم أولى وأحق بالمحبة منهما، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بتقديمهما في المحبة علينا.

ثم اتفق كيدهم على أن يلقوه في غيابة الجب؛ حتى يلتقطه بعض المارة من المسافرين فحصل ما حصل من كيدهم، ووصل الضر والبلوى إلى أبيهم؛ حيث جاؤوا أباهم متباكين مختلقين تلك الحيلة: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] ولم يَرُجْ صنيعهم هذا على نبي الله يعقوب، بل قال لهم مُعْرِضًا عن كلامهم، صابرًا محتسبًا، مفوضًا أمره إلى الله، طالبًا العون منه وحده معبرًا عما وقع في نفسه من تمالُئِهم

---

(١) روى البخاري في صحيحه - مع الفتح - كتاب أحاديث الأنبياء، باب قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٣٣]، (٦/ ٤١٧) برقم (٣٣٨٢) من حديث ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ ابْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ** عليهم السلام».

(٢) هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، البكري الوائلي، أبو عمرو: شاعر، جاهلي، من الطبقة الأولى. ولد في بادية البحرين، وتنقل في بقاع نجد. وقُتل شابًّا قبل الهجرة بستين عامًا تقريبًا. أشهر شعره معلقته: (لخولة أطلال ببرقة ثهمد) وعليها شروح كثيره. انظر: الأعلام للزركلي (٣/ ٢٢٥).

(٣) انظر: ديوانه ص (٢٧).

على قتلِ يوسف بقوله:﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، أي: فسأصبر صبرًا جميلًا على هذا الأمر الذي قد اتفقتم عليه، حتى يفرِّجَه الله بعونه ولطفه، وهو المستعان على ما تذكرون من الكذب والمحال. قال مجاهد: «الصبر الجميل: الذي لا جزع فيه»(١).

فما كان من هذا النبي الكريم إلا أن صبر على ما ناله من ضرٍّ، وبثَّ همَه وشكواه إلى الله، وهذا لا ينافي جميل الصبر، فَصَبَرَ الأب المكلوم، كما صبر الابن المظلوم على ما تعرض له من ألوان الضر في غربته؛ حتى جازاه الله على صبره ذاك في الدنيا قبل الآخرة؛ فأصبح وزيرًا لملك مصر، يتصرف في خزائن الأرض من الحبوب والثمار كيفما شاء، مما يرى فيه تحقيقًا لمصالح العباد، وتناسبًا لأحوالهم خلال سنين الجدب المقبلة، وذلك من فضل الله على نبيه يوسف عليه السلام جزاءً على صبره وإحسانه، قال تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

وكان من عظيم لطف الله تعالى بنبيه يوسف عليه السلام أن رتب على ذلك التمكين أن تعرف على إخوته إذ وفدوا عليه كسائر الناس؛ ليمتاروا من الخزائن التي مكنه الله منها، قال تعالى:﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨]، فكانت له السلطة عليهم، فما بطش بهم وما انتقم لنفسه، ولم يؤنِّبهم حتى بالكلام، مع أنهم أساؤوا إليه وهم لم يتعرفوا عليه بعد، فاتهموه بالسرقة زورًا وبهتانًا ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧]، قالوا ذلك حين دبّر تلك المكيدة بأمر الله؛ ليضم إليه أخاه، فعفا وصفح وتجاوز عن ظلمهم في الماضي والحاضر، وكظم غيظه في نفسه، وما زاد على أن قال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩٨).

وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ [يوسف: ٨٩]، أي: كيف فرقتم بينهما؟ إنما حملكم على ذلك الجهل. قال لهم ذلك لما ذكروا له ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد وَلَدَيْه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقةٌ ورأفةٌ ورحمةٌ وشفقةٌ على أبيه وإخوته، وبدره البكاء، فتعرف إليهم، يقال إنه رفع التاج عن جبهته، وكان فيها شامة. والظاهر -والله أعلم -أنه إنما تعرف إليهم بنفسه، بإذن الله له في ذلك، فعند ذلك ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف:٩٠]، والاستفهام في قوله: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾؟ يدل على الاستعظام، أي: إنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلهذا قالوا ذلك على سبيل الاستفهام، ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ ﴾ بأن جمع بيننا بعد طول الفرقة، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ تذكُّرٌ وشكرٌ؛ وهذا من لطفه ﷻ، ورفيع خلقه وتوظيفه للمواقف في الدعوة إلى الله؛ فلم يؤنبهم على ما صنعوا، ولكن استغل ذلهم وانكسار قلوبهم لقبيح جرمهم في هدايتهم وتوجيههم للخير، ولما هو أنفع لهم، ولا شك أن قلب المدعوِّ في مثل هذه الحال مأسور، فاستجابته وانقياده شبه متحققة، فلم يفوِّت نبي الله يوسفُ ﷺ الفرصةَ في الدعوة إلى الله، مع ما تحمل العبارات في طياتها من مضامين الشكر والثناء على الله تعالى؛ بأن رزقه تقواه وصبَّره على بلواه، وأثابه ثواب المحسن في طاعة ربه ومولاه، ولهذا اعترفوا له بالفضل والأثرة عليهم في الخلْق والخُلُق، والسعة والملك، والتصرف والنبوة، وأقروا له بأنهم أساؤوا إليه وأخطؤوا في حقه: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ . قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف:٩١-٩٢]، وزاد في أسر قلوبهم وحملِهم على المزيد من الاستجابة لدعوته أن صرح لهم بالعفو والصفح

والمسامحة، وأنه لن يؤنبهم أو يعتبَ عليهم بعد اليوم، بل ولن يجرح شعورهم بإعادة ذكر ذنبهم في حقه مرة أخرى ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، ثم زادهم بأن دعاء لهم بالمغفرة والستر فقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1].

فزاد الله له في التمكين وجمع شمله بشتات أسرته بعد طول غياب؛ جزاء له على شكره وصبره؛ فقال لإخوته عن أمر الله: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣]، ولعمر الله إنه لخُلُقٌ رفيع وحال بديع أن يتعامل معهم بهذا اللطف وقد حصل منهم ما حصل، ولئن كانت هذه حال الابن فإن حال الأب لا تقل عن ذلك؛ إذ تعرض لضرٍّ آخر، حيث فقد حبيبه الآخر شقيقَ يوسف عليه السلام، الذي لم يكن يأذن لبقية أبنائه بأخذه إلى أرض مصر، إلا ببالغ الأيمان أن يردوه، إلا أن يغلبهم أمر لا سبيل لهم إلى دفعه: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]، ووقع ما كان يحذر، وغُلبوا على أمرهم، فلم يستطيعوا الرجوع به، ولكنه عليه السلام قابل هذه البلوى بما قابل به الأولى؛ صبرٌ جميل، بل وحسنُ ظنٍ بالله، ودعاءٌ وتضرع، ولم ينقطع رجاؤه في ربه بأن يرد إليه ولديه، قال تعالى:﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]، ولما كانت الريبة قد حصلت من أبنائه في صنيعهم الأول مع يوسف جرَّ حكمها على هذه فصح أن يقول: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[2]. فأحسن الله العاقبة للنبيَين الكريمَين وجمع بينهما مع أهلهما وسجد الأبوان والإخوة الأحد عشر ليوسف عليه السلام؛ تحقيقًا لرؤياه السابقة، وكان هذا سائغًا في الشرائع السابقة، إذا سلموا على الكبير أن يسجدوا له احترامًا، ثم أخذ نبي الله

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٣٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٧).

يوسف عليه السلام يثني على ربه ويعدد فضائله عليه فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]، دعا ربه ﷻ، لما تمت النعمة عليه، باجتماعه بأبويه وإخوته، وما منّ الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه ﷻ كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلمًا، وأن يلحقه بالصالحين، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين(١).

المطلب الرابع: يونس عليه السلام:

إن المتأمل لِسِيَرِ الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- يشعر وكأنه يقرأ سيرة نبي واحد؛ فالكلُ صبرَ وتضرعَ ودعا واستسلمَ وانقادَ لأمر الله، على الرغم من اختلاف ما ابتلاهم الله به من ألوان الضراء، فهذا نبي الله يونس بن مَتَّى عليه السلام، بعثه الله إلى أهل قرية "نينوى"(٢)، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضبًا لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاثة أيام، فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله ﷻ، وجأروا إليه، ورغت الإبل وفُصْلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحُمْلانها، فرفع الله عنهم العذاب، قال تعالى:﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب مغاضبًا لقومه عن غير أمر الله، ظانًّا أن الله لن يؤاخذه بذنبه، قال تعالى:﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ

(١) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٥٣٦- ٥٣٧).

(٢) مدينة نبي الله يونس عليه السلام من أرض الموصل بالعراق، انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (٥/ ٣٩١).

إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ . فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧–٨٨].

فركب مع قوم في سفينة فَلَجَّجت بهم(١)، وخافوا أن يغرقوا فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضًا، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا، قال تعالى:﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴾ [الصافات: ١٤١]، أي: قارع فكان من المسْهُومِين المغلوبين، حيث وقعت عليه القرعة، فقام يونس عليه السلام، فألقى نفسه في البحر، فأرسل الله حوتًا يشق البحار، فالتقمه، فأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا تأكل له لحمًا، ولا تهشم له عظمًا؛ فإنه ليس لك رزقًا، وإنما بطنك يكون له سجنًا(٢).

فأخذ يتضرع إلى ربه وينادي في تلك الظلمات؛ ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، متوسلًا إليه بتوحيده، معترفًا بذنبه، تائبًا من خطيئته: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: في معصيتي إياك، فأتاه الفرج فورًا، ونجاه الله مما هو فيه من غمٍ وضرٍ: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ ﴾وليست هذه النجاة المترتبة على التضرع والرجوع إلى الله خاصةً بنبي الله يونس عليه السلام، بل هي عامة لكل مؤمن ولهذا قال سبحانه بعد ذلك: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، أي من كربهم إذا استغاثوا بنا ودعونا(٣).

ولذا ثبت في الصحيح من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ : « **دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي**

(١) لَجَّجَتْ السفينة أي خاضت لُجَّةَ البحر: وهو والماء الكثير الذي لا يدرك قعره ولا يرى طرفاه. انظر: لسان العرب مادة (ل ج ج) (٢/ ٣٥٤- ٣٥٥) .

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٩٦).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (١٦/ ٨١).

كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ»[1].

وهذه حال المؤمن عند نزول الضراء؛ تضرعٌ ودعاءٌ وتملقٌ إلى الله تعالى، عندها سيجد ربًّا رحيمًا لا يتعاظمه ذنب أن يغفرَه، وبالأخص إذا كان هذا المؤمن محسنًا قبل نزول الضُّرِ والشدة، فإن هذا أحرى بإجابة الدعوة وكشف الكربة؛ ولهذا رتب سبحانه استجابته لنبيه يونس عليه السلام في موطن آخر على إحسانه قبل الكربة، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤].

قيل: لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء من صلاة وتسبيح وغير ذلك مما كان يفعله قبل البلاء الذي ابتُلي به -وهو الحبس في بطن الحوت- لبقي محبوسًا فيه إلى يوم القيامة، ولكنه كان من الذاكرين الله قبل البلاء، فذكره الله حال الضراء، فأنقذه ونجَّاه. قاله: الضحاك بن قيس، وأبو العالية، ووهب بن منبه، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير[2]. وقيل: هو ما حصل منه في بطن الحوت من تضرعه ودعائه الله تعالى، قاله: الحسن وسعيد بن جبير[3].

المطلب الخامس: خاتم أنبياء الله نبينا محمد ﷺ:

لقد لقى نبينا محمد ﷺ من قومه من صنوف الأذى ما لم يلقه نبي، وقابله بما لم يقابله به نبي؛ من الصبر على أذاهم واحتساب الأجر على الله ﷻ، والمضي في دعوتهم، والحرص الشديد على هدايتهم، والرفق بهم، وخفض الجناح، ولين الجانب لهم، على الرغم من شدة أذاهم له، حتى شهد له ربه برحمته ولين جانبه لهم؛ قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران:

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب (٨٢) (٥/ ٤٩٥) برقم (٣٥٠٥) والحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٥). وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ١٦٨- ١٦٩) برقم (٢٧٨٥).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٢٣/ ٩٩- ١٠١)، وابن كثير (٦/ ٣٩٧).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (٢٣/ ٩٩- ١٠١).

١٥٩]، بل وكان ﷺ عظيمَ الحسرة على شرودهم عنه، وعدم انتفاعهم بالهدى الذي جاء به، حتى كاد أن يهلك نفسه حسرة على عدم هدايتهم، قال تعالى:﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦] أي: لعلك مهلك نفسك، غمًّا وأسفًا إن لم يتبعوك ويؤمنوا بما جئت به، فكان ﷺ حريصًا على هداية الخلق، باذلًا في ذلك أعظم الأسباب، يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسفُ على إعراض المكذبين، شفقةً منه ﷺ عليهم، ورحمةً بهم، فأرشده الله تعالى إلى ترك هذا الأسف على أمثال هؤلاء الذين لم يرد الله هدايتهم؛ إذ لا خير فيها كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨]، وذلك أنه ﷺ قد أدى ما عليه فلا من البلاغ فلا يضره إعراضهم؛ قال تعالى:﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ [الشورى: ٤٨]، وأجره ﷺ قد وجب على الله، وهؤلاء لو علم الله فيهم خيرا لهداهم(١).

وكل هذا الصبر والاحتساب منه ﷺ امتثالًا لأمر ربه ﷻ إذ أوصاه بما أوصى به إخوانه من قبله، قال تعالى:﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وأمره أن يشفع هذا الصبر بكثرة ذكر الله والصلاة، خصوصًا في الأوقات الفاضلة، قال تعالى:﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴾ [ق:٣٩]،أي: صَلِّ وأكثر من الثَّناء على ربِّك والتنزيه له ممَّا يقول المُبْطِلون ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ ﴾ وهي صلاة الفجر، ﴿وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴾ وهي صلاة العصر، لما في الصحيحين من حديث جرير بن عبد الله البجلي ﷺ، قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ «**أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا**

(١) انظر: تفسير السعدي (٣/ ١٥٧) و (٤/ ٢٢١).

فَافْعَلُوا». ثُمَّ قَرَأَ ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ [ق: ٣٩][(١)]، ثم قال تعالى بعد هذه الآية من «ق»: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ [ق: ٤٠] مما يدل على أهمية التسبيح، وذكر الله وعظيم نفعه فيما يجره للعبد من معونة الله وتسديده، سواء حملنا هذا التسبيح على الصلاة أو التسبيح باللسان أدبار الصلوات المكتوبات[(٢)].

وكان النبي ﷺ يتألم من أذى قومه له، ويحزن أشد الحزن، شأنه في ذلك شأن البشر، ومما يزيد ألمه حزنًا وحسرةً أنه أذًى غير مُبرر؛ إذ لم يصدر منه ﷺ ما يستدعيه، بل إن إحسانه إليهم ونفعه لهم ظاهر بيّن، حتى قبل بعثته ﷺ، وقلوبهم مستيقنة بصدق ما جاءهم به ﷺ إذ لم يجرّبوا عليه كذبًا قط، قال تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣]، ثم إنهم قرابته وبنو عمومته؛ وظلم القريب أشد مرارةً وألمًا؛ كما تقدم في قول طرفة بن العبد في معلقته[(٣)]:

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً على المرءِ من وَقْعِ الحُسامِ المُهنّد

ولقد بلغ بهم الأذى له ﷺ كل مبلغ، حتى أخذوا يدبرون له المكائد، ويحيكون الخطط لقتله ﷺ، أو حبسه، وإيثاقه، أو إخراجه من أرضه وقريته التي عاش بها كما قال تعالى:﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠]، فمكر الله بهم بكيده المتين، وخلّص نبيه ﷺ

(١) انظر: صحيح البخاري مع الفتح، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر(١/ ٥٢) برقم (٥٧٣)، وصحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما (١/ ٤٣٩) برقم (٦٣٣).

(٢) انظر: زاد المسير (٨/ ٢٤).

(٣) تقدم تخريجه والتعريف بقائله قريبًا.

منهم وصدَّ أذاهم عنه، وعصمه منهم فلم يخلُصوا إلى قتله، ولم يجدوا إلى ذلك سبيلًا، ليبلِّغ ما أمره به استجابة لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

فكادوا له ﷺ وأردوا أن يستخفِّوه ﷺ ليخرجوه من مكة، وما علموا أن بقاءَه أمان لهم؛ إذ لو أخرجوه منها لم يلبثوا بعده إلا قليلًا، وإلا نزل بهم العذاب عاجلًا، قال تعالى:﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦]، وكذلك وقع؛ فإنه لم يكن بعد هجرته ﷺ من بين أظهرهم، بعد ما اشتد أذاهم له، إلا سنة ونصف حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم، وسلطه عليهم، وأظفره بهم، فقتل أشرافهم وسبى سُراتَهم (١).

وتلك عاقبة الصبر وثمرته؛ الفوز والتمكين في الدنيا والآخرة .

ومن ألون أذى المشركين للنبي ﷺ أنهم لشدة تعنتهم وإلحادهم، وحيرتهم فيما جاء به، وضلالهم عنه، وعدم قدرتهم على معارضته، اختلفت أوصافهم له، فتارة جعلوه سحرًا، وتارة جعلوه شعرًا، وتارة جعلوه أضغاثَ أحلام، وتارة جعلوه مفترًى، قال تعالى:﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾[الأنبياء:٥]، يعنون بالآية مثل ناقة صالح، وآيات موسى وعيسى، ولو جاءهم ما اقترحوه من الآيات لكذبوا به، كما كذب من قبلهم؛ ولذا لم يجبهم الله إلى ما سألوه كما قال تعالى:﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩](٢)، فأبطل الله دعاويهم تلك كلها، وزكى نبيه محمدًا ﷺ فيما جاء به، وأقسم

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ١٠١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٣٢٣).

لخلقه على ذلك بما يشاهدونه، وما لا يشاهدونه من آياته الدالة على وحدانيته سبحانه، بأن القرآن كلامُه ووحيه وتنزيلُه على عبده ورسوله، الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ. وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ. إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ. وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ. وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ. تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ. وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ. لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ. فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٣٨ – ٤٧]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ يعني: محمدًا ﷺ، أضافه إليه على معنى التبليغ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسِل؛ ولهذا أضافه في سورة التكوير إلى جبريل، عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ. ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ. مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ. وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ. وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ. وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ. وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ. فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾ [التكوير: ١٩ – ٢٦]

فزكى الله نبيه محمدًا ﷺ هنا بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾ أي: رأى محمد ﷺ جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، في أفق السماء الشرقي، وفي قوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾، قراءتان: فقراءة ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالظاء، أي بمُتَّهم بالكذب، وقرأ الباقون بالضاد: أي ببخيل[1]، والمعنى أي: لم تتهموه بالكذب من قبل، ولا يبخل عليكم بما يعلم أنَّ فيه خيرًا لكم؛ ولذا علَّمَ الخلقَ كلامَ الله وأحكامَه؛ لما يترتب على ذلك من عظيم النفع في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾، أي: وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي: مرجوم ملعون، كما زعمت قريش. فإن الشياطين لا يقدرون على حمل القرآن، ولا ينبغي لهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ. وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ. إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ – ٢١٢]، وقوله: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾ أي: فأين

(١) انظر: النشر في القراءات العشر (٣/ ٢٦٠)، والتيسير في القراءات السبع ص (٢٢٠).

تذهب عقولكم حين تكذبون بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه من عند الله تعالى، وأي طريقة تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم؟! وهكذا قال في «الحاقّة»: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ، فأضافه تارة إلى قول الرسول المَلَكي، وتارة إلى قول الرسول البشري؛ لأن كلا منهما مبلغ عن الله ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه؛ ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، ثم قال تعالى مؤكدًا على صدق نبيه وبراءته مما رموه به: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ أي: لو كان كما تزعمون مفتريًا علينا، فزاد فيما أوحي إليه أو نقص، أو قال شيئًا من تلقاء نفسه، لعاجلناه بالعقوبة، ولكن ليس الأمر كذلك، ولهذا قال: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ قيل: معناه لانتقمنا منه باليمين؛ لأنها أشد في البطش، وقيل: لأخذنا منه بيمينه، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ وهو نياط القلب، وهو العِرْقُ المعلق فيه القلب، وقوله: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أي: فما يقدر أحد منكم على أن يحول بيننا وبينه إذا أردنا به شيئًا من ذلك. والمعنى في هذا: بل هو صادق بار راشد؛ لأن الله ﷻ مقرر له ما يبلغه عنه، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات(١).

ووصفوه بالشعر والجنون فكذبهم الله وزكاه وزكى ما جاء به، وأنه يصدق ما جاء به إخوانه السابقين من الأنبياء، قال تعالى:﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ . بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٦ – ٣٧].

ووصفوه بأنه كذاب فيما ادعاه من النبوة، بل هو ساحر يفرق بسحره بين الوالد وولده، والرجل وزوجته، ويجئ بالكلام المُموّه الذي يخدع به الناس، وإلا فكيف يبطل تلك المعبودات الكثيرة ويصيرها إلها واحدا، لا تجوز العبادة لغيره، إن هذا لشيء عجيب! قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٤-٥].

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٧٣) والبغوي (٤/ ٣٩٠).

ووصفوه بأنه مجنون، وليس برسول، وأن ما يأتي به من الوحي إنما تعلمه من البشر، أو من الكهنة والشياطين؛ ولذا أعرضوا عنه ولم يسمعوا له قال تعالى:﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٢ – ١٤].

وليسوا ببدع في ذلك، فهي مقالة من سبقهم من الأمم المكذبة، وكأنما أَوْصَى بعضهم بعضا بهذه المقالة، ولكنهم قوْمٌ طُغَاةٌ تَشابهتْ قلُوبُهم، فتشابهت أفعالهم، وقال متأَخِّرُهُمْ كما قال مُتقَدِّمُهُمْ، قال تعالى:﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢ – ٥٣] وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، وتولى الرب سبحانه وتعالى الدفاع عن نبيه، ورد عليهم مقالتهم تلك، وزكى نبيه ﷺ، قال تعالى:﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ . أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ . قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ . أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ . أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٢٩–٣٤]، مع أنهم يعرفون صدقه وأمانته ورجاحة عقله ولكن كما قال الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

المطلب السادس: سحرة فرعون(١):

ومن الذين ابتلوا فصبروا إيثارا للحق ورغبة فيما عند الله وطمعًا في رحمته وأن يكفِّرَ عنهم ما كان في سالف عهدهم: سحرة فرعون، وذلك أن الله أعطى نبيه موسى عليه السلام من المعجزات ما بهر فرعون وقومه أن يعارضوه، بل أعجز دهاقنتهم الذين بلغوا في السحر شأوًا عظيمًا، حتى وقع في نفس نبي الله موسى عليه السلام ما وقع؛ خوفًا على الناس أن يفتتنوا ويغتروا بسحرهم عندما ألقوا حبالهم وعصيهم، وخُيِّلَ

(١) حق هذا المطلب – بالنظر للتدرج الزمني– أن يكون بعد المطلب الثالث؛ ولكن لما كانت جميعُ النماذجِ المذكورةِ في مطالبِ هذا المبحثِ من أنبياءِ الله ورسلِه عدا هذا المطلبِ آثرتُ تأخيرَه لئلا يدخلَ بينهم من ليس منهم.

إليه لشدة سحرهم أنها حياتٌ تسعى- فكيف بغيره من الناس – قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ . قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ . فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ . قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ . وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ . فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ . قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ . قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ . إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ٦٥ – ٧٣].

فلما ألقى نبي الله موسى عليه السلام عصاه تحولت إلى ثعبان عظيم، تبتلع مَا يَأْفِكُونَ، أَيْ: مَا يكذبون وَيُوهِمُونَ الناس أَنَّهُ حَقٌّ وَهُوَ بَاطِلٌ، فَجَعَلَتْ لَا تَـمُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ حِبَالِهِمْ وعصيهم إِلَّا الْتَقَمَتْهُ، فعلم السحرة -وهم أعرف الناس بفنون السحر- أن ما جاء به موسى عليه السلام ليس من قبيل السحر، بل هو من أمر الله، ﴿ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ . فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ . وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ . قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٨ – ١٢٢].

فلما وقع الحق وبطل مكرُ فرعون وسحرتِه، ورأى عدو الله أن حجته انقلبت عليه، وأنه هزم شر هزيمة؛ حيث آمن السحرة الذين استنصر بهم، واتبعوا موسى على مرأًى من تلك الحشود العظيمة التي جاءت واعدةً باتباع السحرة إن كانوا هم الغالبين؛ لما رأى الخبيث ذلك أراد أن يبرر موقفه وهزيمته قائلًا: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ ﴾ فصورَ لهم أنَّ هَذَا الغلبة التي وقعت من موسى إنما هي مَكْرٌ ومكيدة بينه وبين السحرة، تواطَؤوا عليها؛ ليخرجوا أهل المدينة منها، أَيْ: باجتماعهم مع موسى لتكون الدولة والتصرف لهم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وهو

يعلم وكل من له لبٌّ أن هذا الذي قاله من أبطلِ الباطل، وإنما قاله تسترًا وتدليسًا على رعاع الناس وجهلتهم كما قال تعالى:﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف:٥٤] فإن قومًا صدقوه في قوله: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤] لمن أجهل الخلق وأضلهم.

ثم شرع عدو الله في المكابرة والمعاندة والبهتان ودعوى الباطل، ولجأ – كما هي عادةُ الظلمةِ والطغاةِ مع من فلجهم بالحجة وخالفهم – إلى استعمال جاهه وسلطانه، ناهجًا أسلوبَ القهر والإذلال، والتعذيب والنكال، فتَوَعَّدَهم -لَعَنَهُ اللَّـهُ- بالنكاية بهم، قائلا: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ وفي آية أخرى: ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٩] بهذه الطريقة الهمجية البشعة، يريد أن يمثل بهم ويشهّر بهم، لكنَّ من ثبته الله وملأ قلبه يقينًا فلن يُؤْثرَ على مرضاته شيئًا، ولن يصده عنها صادٌّ، بل تهون عليه نفسه في ذات الله ﷻ، ويتحمل في سبيل ذلك ألوان العذاب، فقالوا له: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ أي: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين، ولا على من فطرنا وأوجدنا من العدم، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ قسمًا؛ أي أقسموا له بعدم الرجوع عن هذا الطريق مهما أنزل بهم من العذاب، قالوا ذلك وهم يعلمون كم تضرم هذه المقالة في قلبه من مزيد الغضب والحنق عليهم، وكم تجرُّ لهم من مزيد العذاب والتنكيل، وأكدوا ذلك بمزيد من التحدي الذي يشعر بعظيم ما وقر في قلوبهم من الإيمان وبرد القين؛ حيث قالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ أي: افعل ما استطعت، ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ أي: إنما سلطانك علينا في هذه الدنيا؛ دارِ الزوال ونحن قد رغبنا عنها إلى دار القرار، ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ أي: ليغفر لنا ما كان منا من الآثام، خصوصا ما أكرهتنا عليه

من السحر لمعارضة آيات الله ومعجزاته، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: والله خيرٌ لنا منك وأدومُ ثوابًا مما كنت وعدتنا ومنيتنا.

وقال محمد بن كعب القرظي: أي: واللهُ خير لنا منك عطاء إن أطعناه، وأبقى منك عذابًا إن عصيناه.

وفي موضعٍ آخر: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ . وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٥-١٢٦] أَيْ قد تحققنا من رجوعنا إليه، وعذابه أشد من عذابك، فلنصبرن على عذابك اليوم لنخلص من عذاب الله غدًا ولهذا قَالُوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أَيْ : صبه علينا لنثبت على دينك ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي: منقادين مستسلمين لك متبعين نبيك موسى عليه السلام[١].

وفي موضعٍ ثالث يكشف عن حالهم تجاه ما توعدهم به فرعون من العذاب والنكال: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ . إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠-٥١] أي: لا حرج ولا يضرنا وعيدك ولا نبالي به، فمردّنا إلى الله تعالى، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملًا، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: بسبب سبقنا ومبادرتنا قومنا إلى الإيمان[٢].

وظاهر السياق أن فرعون -لعنه الله- قتلهم جميعًا، وكانوا جمعًا كثيرًا؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف: كانوا أولَ النهار سحرة، وآخرَه شهداءَ بررَة[٣].

وإن في خبرهم لمعتبرًا لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؛ فمع قصر

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٧١- ٧٢).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٦٢٤).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (٩/ ٢٤).

عمرهم على الإيمان لكن نالوا من اليقين ما هوّن عليهم المصائب الجسام، والعذاب المقام الذي لم ينزله عدو الله بهم دفعةً واحدةً، بل سلسلة من التعذيب والتنكيل، وجمع بين ألوان من العذاب الحسي والمعنوي، بل إنهم تحولوا إلى دعاة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؛ فوعظوا الطاغية، وحذروه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي، ورغبوه في ثوابه الأبدي المخلد، مبينين له مآل من يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم، كحاله، حيث قالوا له: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ . وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ . جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٤ – ٧٦] فظاهر السياق أن هذا من تمام كلام السحرة، ويصح أن يكون استئنافًا من كلام الله تعالى[1].

(١) انظر تفسير ابن كثير (٥/ ٢٩٨- ٢٩٩).

الخـاتمـة

حمدًا لله تعالى على ما أتم من إكمال هذا البحث الذي سلط شيئًا من الضوء على ما ورد في القرآن الكريم، من ذكر أحوال الأخيار من عباد الله المؤمنين، تجاه ما قدره عليهم من ضراء يبتليهم بها في أنفسهم وأهليهم وأموالهم؛ لرفع درجاتهم وتكفير سيئاتهم، وأنه على قدر كمال إيمانهم وتقواهم لله تحسن أحوالهم في مقابلتها بما يرضاه من الصبر والاحتساب؛ عبادةً لله سبحانه، كما يتعبدونه بالشكر على نعمائه. وظهر من خلال هذا البحث الثمار والفوائد التالية:

١- أن الابتلاء بالشر كالابتلاء بالخير، سنة ماضية لا مفر منها، كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

٢- أنَّ الابتلاءَ بالشرِ أبلغُ أثرًا في تحقيق عبادةِ الرجاءِ والرجوع إلى الله ﷻ، وحمل العبد على التوسل لله تعالى؛ لأن دفعَ كل شرٍ وجلبَ كل خيرٍ بيده ﷻ، ولذا قدَّم الشر على الخير في الآية الآنفة الذكر.

٣- الرضاء بقضاء الله وقدره؛ لأن كمال الخير وحقيقته ليست في مجرد ما يدركه العقل البشري من الصورة الظاهرة، بل قد يُحرَم العبد ما ظاهره الخير؛ لأن لطف الله تعالى يخفي من الخير ما هو أعظم، وقد يُبتلى العبدُ بما ظاهره الشر، وتحته من الخير ما يقصر العقل البشري عن إدراكه.

٤- أنَّ الصبرَ أعظمُ سلاحٍ يتسلحُ به المؤمنُ تجاه أقدار الله المؤلمة؛ إذ لا سبيل لرد قضاء الرب سبحانه وتعالى، لكن بالصبر تتحول تلك الأقدار المؤلمة إلى عبادة ينال عليها العبد عظيم الأجر والثواب.

٥- أنَّ من حق الله على عباده المؤمنين وجوبَ توحيده تعالى في كشف الضر وإزالته، وألا يعتقدوا ذلك في غيره مهما علت منزلته ومكانته .

٦- أنَّ من الأدب مع الله تعالى ألا ينسب الضُّرُ إليه، وإن كان بتقديره، وهكذا دأب الصالحون والأخيار، ولهذا قال خيارهم وخاتمهم ﷺ : «**وَالشَّرُّ لَيْسَ**

إِلَيْكَ»(١).

٧- أنَّ من لطف الله ورحمته أنْ قرنَ بين المشقة والتيسير؛ فخفف عن المؤمن في العبادة بقدر ما يمسه من ضر فالمشقة تجلب التيسير: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ – ٦].

٨- أنَّ مقياس الكرامة والخيرية عند الله تعالى ليس بما ينال الإنسان في هذه الحياة من ضراءٍ أو سراءٍ؛ فقد يبتلى الله خيار عباده بالضُّرِ، وينعم على شرارهم بالخيرِ، وإنما مقياس الكرامة بقدر ما يوفق الله العبد للتعامل مع كلٍ بما يرضي الله تعالى.

٩- أنَّ أكملَ الناسِ أحوالًا في مقابلة الضراء بما يليق بالله تعالى هم أكرم الناس عليه وأتقاهم له.

١٠- أنَّ اللهَ تعالى جعل لعباده المؤمنين قدواتٍ يحتذون بها من خيرة خلقه؛ ألا وهم أنبياؤه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فابتلاهم بالضراء كما ابتلى غيره، فالمؤمن الحقُّ يصبرُ كما صبروا .

وختاماً لا يسعني إلا أن أقول:

إِلَـــهِيْ تَقَبَّـــلَ مِـــنِّيْ الْعَـــمِلْ		وَعَفْوُكَ عَمَّـا بِـهِ مِـنْ زَلَـلْ
وأَخْلِصْ لِيَ الْـقَصَدَ فِي صُنْعِهِ		فَمَـا لِسِـوَاكَ بِــهِ مِـنْ مَحِلّْ
وَصَيِّـــرْهُ تِـرْيَـــاقَ مَـــنْ رَامَـــهُ		لِتَخْفِيْفَ ضُرٍّ بِهِ قَـدْ نَـزَلْ
وَحَقِّــقْ بِــهِ نَــفَعَ عَبْــدٍ رَجَــاكْ		بِدَفْعِ الْمُخُوْفِ وَجَلْبِ الْأَمَلْ

وصلى اللهم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين. وافق الفراغ منه : الخامس عشر من شهر شعبان من عام (١٤٣٦هـ).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث علي بن أبي طالب ﷺ . كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١/ ٥٣٤- ٥٣٦) برقم (٧٧١) .

فهرس المصادر والمراجع

١. **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، ١٤٠٧هـ.

٢. **الأعلام**، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة السابعة، ١٩٨٦م.

٣. **بدائع الفوائد** . لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي . بيروت . لبنان .

٤. **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، لأبي العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المبارك فورى (المتوفى: ١٣٥٣هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت. تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

٥. **تفسير البغوي**، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق خالد بن عبد الرحمن العك، ومروان سوار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الثانية ١٤٠٧هـ .

٦. **تفسير التحرير والتنوير**. للعلامة محمد الطاهر ابن عاشور، لدار السلفية للنشر، تونس،١٩٨٤م.

٧. **تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل** ، لمحمد جمال الدين القاسمي، تصحيح وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار أحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.

٨. **تفسير القرآن العظيم**، للحفظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق د.حكمت بشير ياسين، دار ابن الجوزي، السعودية، الدمام، ط: الأولى، ١٤٣١هـ.

٩. **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، للحافظ جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي، تحقيق د.بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤١٢ .

١٠. **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد**، للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة. ١٣٩٧هـ.

١١. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان** . للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، راجعه وقدم له: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الأوس بالمدينة، دار الصفا، الزقازيق.

١٢. **التيسير في القراءات السبع**. لأبي عمرو الداني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ.

١٣. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، مكتبة مصطفى البابي، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨ .

١٤. **الجامع لأحكام القرآن**. لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط: الأولى ١٤٠٨هـ.

١٥. **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**. لأحمد بن يوسف المعرف بالسمين الحلبي، تحقيق د.أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط الأولى، ١٤١٥هـ .

١٦. **ديوان طرفة بن العبد**، لطَرَفَة بن العَبْد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي أبو عمرو الشاعر الجاهلي، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

١٧. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، ضبط وتصحيح علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٥هـ .

١٨. **زاد المسير في علم التفسير**، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط: الأولى، ١٤٠٤هـ .

١٩. **زاد المعاد في هدي خير العباد**، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، ط الثالثة ١٤١٩هـ.

٢٠. **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الطبعة ١٤١٥ .

٢١. **سنن ابن ماجه** ، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة.

٢٢. **سنن أبي داود**، للإمام الحافظ أبي داوود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية استانبول، تركيا.

٢٣. **سنن الترمذي**، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان .

٢٤. **سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي**، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائي، عناية وترقيم: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط الثالثة، ١٤٠٩هـ .

٢٥. **السير النبوية**، لابن هشام، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٦. **شعب الإيمان**، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: أبي هاجر محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

٢٧. **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، للإمام ابن قيم الجوزية، تعليق: مصطفى أبو النصر شلبي، مكتبة السوادي، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٢٨. **صحيح البخاري مع الفتح**، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة بيروت .

٢٩. **صحيح الترغيب والترهيب**، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض ط: الأولى، ١٤٠٩هـ .

٣٠. **صحيح سنن ابن ماجه**، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ط: الثانية، ١٤٠٨هـ.

٣١. **صحيح سنن أبي داود**، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ط: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٣٢. **صحيح سنن الترمذي**، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ط: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٣٣. **صحيح سنن النسائي** . للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض ط الأولى، ١٤٠٩هـ.

٣٤. **صحيح مسلم**، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٥. **شرح النووي على صحيح مسلم**، للحافظ محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي. دار الفكر.

٣٦. **ضعيف سنن الترمذي**، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي بإشراف زهير الشاويش، بيروت لبنان ط: الأولى، ١٤١١هـ.

٣٧. **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية تحقيق: عايد بن مسفر العقيلي وعبد الله بن عايض القحطاني وخالد بن علي العابد نشر دار الفضيلة

للنشر والتوزيع، السعودية .الرياض،ط الأولى١٤٣٢هـ .

٣٨. **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية تحقيق سليم بن عيد الهلالي ، دار ابن الجوزي السعودية الدمام ،ط ١٤٢٠هـ.

٣٩. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، للحافظ أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار المعرفة، بيروت .

٤٠. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، لمحمد بن على الشوكاني تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة دار الوفاء المنصورة مصر، ط الأولى ١٤١٥هـ .

٤١. **قصص الأنبياء**، للإمام الحافظ عماد الدين ابن كثير القرشي، تحقيق: علي عبد الحميد بلطه جي، ومحمد وهبي سليمان. دار الخير. الطبعة الأولى، سنة ١٤١٢.

٤٢. **كتاب الأسماء والصفات للإمام البيهقي**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٤٣. **كتاب الدعاء**، للحافظ الإمام أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق د. محمد سعيد بن محمد حسن البخاري. دار البشائر الإسلامية، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٤٤. **كتاب الروح**، لابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، وخرج أحاديثه كمال بن محمد قالمي، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط الأولى ١٤٣٢هـ.

٤٥. **كتاب السنة**، للحافظ أبي بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

٤٦. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، مكتبة مصطفى البابي، الطبعة الأخيرة ١٣٩٢هـ.

٤٧. **لسان العرب**، لأبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت، لبنان ط الأولى، ١٤١٠هـ.

٤٨. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٣هـ.

٤٩. **مختار الصحاح**، لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، عُنيت بضبطه وتصحيحه سميرة خلف الموالي، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت، لبنان.

٥٠. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين** ، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط الثانية ١٤٠٨هـ .

٥١. **المسند**، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني، شرحه وصنع فهارسه الشيخ أحمد بن محمد شاكر.

٥٢. **معجم البلدان**، لشهاب الدين؛ ياقوت بن عبد الله الحموي تحقيق فريد عبد العزيز الجنيدي دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط: الأولى ١٤١٠هـ.

٥٣. **الموسوعة العقدية**، إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف، الناشر: موقع الدرر السنية على الإنترنت.

٥٤. **النشر في القراءات العشر**، لمحمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزري، تحقيق: د. محمد سالم محيسن، مكتبة القاهرة.

٥٥. **النهاية في غريب الحديث والأثر**، لمجد الدين المبارك بن محمد الجزري، ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، ط: دار الفكر، بيروت، لبنان.

٥٦. **الوسيط في تفسر القرآن المجيد**، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، مكتبة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص	٨٣
المقدمة	٨٤
المبحث الأول: تحقيق المؤمن للتوحيد حال الضراء	
المطلب الأول: توحيد الله في كشف الضر	٨٩
المطلب الثاني: الرضا بالقضاء والقدر	٩٤
المطلب الثالث: إفراد لله بالدعاء والتوسل في جلب الخير	٩٩
المبحث الثاني: حال المؤمن في نسبة الضر	
المطلب الأول: نسبة الضر إلى الله تعالى في تقديره	١٠٥
المطلب الثاني: نسبة الضر إلى العبد في سببه	١١١
المطلب الثالث: الإخبار عن الضر	١١٦
المبحث الثالث: حال المؤمن فيما يقابل به الضر وعاقبتها الحسنة	
المطلب الأول: الصبر والتسليم واحتساب الأجر على الله تعالى	١١٩
المطلب الثاني: عواقب الصبر على الضراء. وفيه مسألتان:	١٢٤
المسألة الأولى: زيادة الإيمان واليقين وراحة البال وطمأنينة النفس	١٢٤
المسألة الثانية: رفعة المنزلة في الآخرة وبلوغ الدرجات العلا	١٢٧
المبحث الرابع: نماذج من أحوال الأنبياء، والصالحين عند الضراء	
المطلب الأول: نبي الله ابراهيم وابنه نبي الله إسماعيل عليهما السلام	١٣٢
المطلب الثاني: نبي الله أيوب عليه السلام	١٣٦
المطلب الثالث: نبي الله يعقوب وابنه نبي الله يوسف عليهما السلام	١٣٩
المطلب الرابع: يونس عليه السلام	١٤٤
المطلب الخامس: خاتم أنبياء الله نبينا محمد ﷺ	١٤٦
المطلب السادس: سحرة فرعون	١٥٢
الخاتمة	١٥٧
فهرس المصادر والمراجع	١٥٩
فهرس الموضوعات	١٦٤